إبداعات يمنية
٢٣٠

روح الحبيبة

بسام شمس الدين

قصص

بسم الله الرحمن الرحيم

تأسست المكتبة الأم في عدن قبل عام 1890
تأسس المركز في صنعاء عام 1994

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء 506 /2006

الطبعة الأولى 1427هـ الموافق 2006م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والخاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي

مركز عبادي للدراسات والنشر

ت: 219618 / فاكس: 219619
ص. ب: 662 صنعاء الجمهورية اليمنية

التنفيذ الطباعي: مركز عبادي للدراسات والنشر

لوحة الغلاف للفنان: مظهر نزار

الشعرة البرونزية

(١)

أسرع البواب يفتح بوابة الفيلا لتلج السيارة، ثم لترسو داخل الفناء المبلط بالرخام الأبيض، ويخرج عبدالقوي بملامحه الهادئة الرزينة، حاملاً فاكهة أول أيام الأسبوع في كيس أحمر قانٍ، طاوياً بيده الأخرى جريدة لم يتبين عنوانها.. وتسرع القطة البقشاء أمامه وهي تموء، رافعة ذيلها إلى الأعلى كأنه مؤشر ميزان زنبركي.. وتدخل من بين ساقيه، وهو يمشي بعدها ويتحاشى أن يدهسها، إلى أن تختبئ تحت قوائم الكنب في صالة الجلوس، ولا يبقى من آثارها غير المواء، لم يشغل باله بها، لأنه مشغول أصلاً.. بما هو أهم من الأمور، وقد اعتاد منها على هذا النمط من الاستقبال كل يوم.. حالما سمع أطفاله صرير الباب أقبلوا ركضاً متدافعين، مطلقين ذات الجلبة وصيحات الفرح المعتادة.. فتنازل لهم عن كيس الفاكهة

ليذهبوا به إلى الشغالة الهندية السمينة.. أما هو فقد فرضت عليه زوجته تغريد فروضاً وخطوطاً حمراء لا يستطيع أن يتجاهلها.. وعليه في البدء أن لا يلفت إلى الشغالة أو أن يهوِّب ناحيتها في أي مكان كانت.. فيما لا يتسنى لهذه العجوز الهندية أن تشاركهم الطعام، أو أن تخرج معهم إلى الحفلات العائلية أو إلى النزهة في أيام الجُمَعْ.. وكانت سيدة الفيلا قد اعتنت في انتقاء سحنتها، ذهبت يومذاك إلى مكتب الأمل للخدمات المنزلية.. وفحصت مئات الصور لشغالات من جنسيات كثيرة... ووقع اختيارها على صورة هذه الشغالة.. ولولا آداب العمل لجابهها الموظف سائلاً عما حدا بها لتختار تلك الصورة بالذات، إذ ليس بها بصيص من جنون، أو عاهة بدنية تجعلها تبدو غير طبيعية، وإنما هي امرأة راشدة في العقد الثاني من عمرها، فارعة القامة، لها عينان نجلاوان عسليتان، ووجه بدري مستدير، تستشف الأبصار جماله من وراء القناع الأسود. ويغلف قوامها روب (بالطو) فرنسي أسود شفاف، يُبدي ثمار جسدها اليانعة الجاهزة للقطف، بحيث يبرز حلمتي نهديها، واستدارة عجيزتها، واسطالة فخذيها الممتلئين..

كلامها عذب موزون وإن شابه بعض النزق، وهيئتها العامة تشي بانتمائها إلى الطبقات الصنعانية المحترمة.. ولعل هناك نساء كثيرات من طبقتها يخرجن عن المعقول إلا أن ذلك الخروج لا يبلغ حد اقتناء شغالة قبيحة جداً، ومع هذا فقد استقدمت هذه الشغالة من الهند، وجيء بها بعد أسبوع من الطلب الذي تقدمت به حرم السيد عبدالقوي إلى مكتب الأمل للخدمات المنزلية.. والحقيقة أن حالة من الذعر حدثت في الفيلا، لأن هذه الهندية الشمطاء لما ظهرت بدت أقبح مما في الصورة، وأكبر سنا، وبات السيد عبدالقوي يخشى على أولاده الصغار من أثر نفسي سيء، وما أنفك يفاوض زوجته بشأن استبدال الشغالة، ولكنه دوما يجابه باللامبالاة والإعراض.. وعندما يلح عليها فإنها لا تتسامح معه أبداً.. فتندفع لتكيل له التهم والكلمات القاسية، ويعجب كيف تواتيها هذه الشراسة على أنوثتها السيالة المشتهاة.. كأنها قطعة حلوى سيئة المذاق، إن صح التعبير، أو عنقود عنب حامض.. كان من قبل أقل منها في الشأن، وكانت وارثة عن أبيها تركة هائلة، ولعله ارتبط بها طمعاً في شركتها التجارية، وهذه الفيلا الجميلة التي

يفطنانها معاً في حي (حدَّة) المترف.. ولكنه والحق يقال أحبها كل الحب، وافتتن بها لذاتها إلى حد الهوس.. صار لا يبالي بالشركة والفيلا ولا بأي شيء آخر، حتى أنه ليظن أن عجلة حياته لن تدور لو لم تدخلها تغريد.. غير أنها تدور الآن على شاكلة غريبة، والمشكلة ليست بالحب لأنها تحبه هي الأخرى أضعاف الأضعاف، لكن هذا الحب لفرط شدته تعدَّى الذروة، فأصبح يؤلمه ويؤرق نفسه آناء الليل والنهار.. باتت تغار عليه من كل شيء، من الناس العاديين والأصدقاء، ومن موظفي وموظفات الشركة، حتى من المسواك الذي يدور في فمه، ومن ملابسه والذباب الذي يحط عليه.. وإلى هذه الدرجة صارت الغيرة فوق احتمال احتماله.. وليس من النادر أن تتوهم بأنه يقيم علاقات غرامية خارج المنزل، فعند إيابه تختلي في غرفته حين يرتاد دورة المياه فتفتش جيب معطفه علها تعثر على أي أثر لامرأة أخرى.. وحينما لا تجد دليلاً يؤيد ظنها يتفاقم هوسها أكثر، بدل أن يزايلها.. كانت تطلب أن تصطحبه إلى أي مكان يخطر له الذهاب إليه، وفي أحايين كثيرة تتمارض

كاذبة لتلغي عليه موعداً مع صديق له.. فيضطر عبدالقوي إلى البقاء معها، ويهاتف صديقه معتذراً، ويفعل كل ما يحلو لها بكل إخلاص، وعن طيبة قلب نادرة..

في أية ساعة تراه سلياً سعيداً مفرفشاً تظن به الظنون.. وتسرع إلى التكهن بأن ثمة فتاة وراء هذه الفرفشة، ولا تلبث أن توجه إليه سيلاً من الأسئلة المنكدة حتى ينتفخ رأسه ويوشك أن يتفجر.. ثم يتناول قرصين - دفعة واحدة - من أقراص الأسبرين المخفف للصداع..

ولعله يرى أن الخطوط الحمراء التي نصبت له هي أسوأ هذه الأعمال، لأنها تشعره بأنه رجل ضعيف مستخدم، وإن كان كثير من رجال يعرفهم يعانون من ظنون الزيجات واضطهادهن.. ولكنه يتسم بالمثالية والتفاني، يعطي أكثر مما يأخذ، والأجدر بها أن تبادله جزءاً مما يحبوها به من وفاء.. أو حتى تعطيه بعض القوامة عليها من باب الشفقة أو الإيثار.. إنه رجل محتل يعاني من احتلال تغريد، تلك الغيرانة الجميلة، إنها لا تدري بما تصنعه فيه من عذاب، بئس ما تصنع.. وتتردد في نفسه خواطر أخرى لا تقل ألماً..

(٢)

لعله هذا السبت قد صمم أثناء عودته أن يرفع صوته عالياً، سيأمر باستبدال هذه الشغالة بأخرى لائقة، ولديه من المبررات ما يكفي لتقتنع بذلك.. الأولاد كبرت، أمسى الأكبر منهم في العاشرة من عمره، ويخشى عليهم أن لا يروا - في ظل وجود هذه الهندية - شيئاً جميلاً في الحياة، وفضلاً عن ذلك فقد صارت طاعنة جداً في السن، ولم تعد ترجى لمنفعة.. انتهى بها الحال أن أصبحت ثرماء ثرماً كاملاً، حتى اقتصرت تغذيتها على العصيدة والمرطبات والشوربة وأنواع الأحسية.. وها قد آن الأوان لتنال مكافأة جزلة لقاء خدمتها الماضية في الفيلا، ثم تمضي بسلام.. هذا ما دار في رأس عبدالقوي وهو عائد من العمل.. كانت دماؤه تفور، وأباليسه حاضرة وغاضبة، وإن بدا للوهلة الأولى طبيعياً وهادئاً عند دخوله الفيلا..

وعندما توسط صالة الجلوس خلع معطفه البني وعلقه على مشجب الحائط، وهو يطلق آهة تعب جامحة.. ثم انحرف يساراً، وألقى بالصحيفة فوق منضدة رمادية تقف أمامه،

وسرعان ما رمى جسده قبالتها على كنبة كحلية طويلة مسندة إلى الجدار.. وسرح بفكره بما سيبتدئ به من فاتحة الكلام الرافع، مستغلاً الغياب اللامألوف لأفراد العائلة.. ولكن قبل أن يسترد أنفاسه الأولى على الكنبة، وقبل أن يحس بأدنى راحة تنتابه، بوغت بقدوم أولاده الثلاثة، وفي يد كل منهم تفاحة مغسولة يقضمها بنهم، وأتت زوجته تغريد على الأثر، لم يلحظ من أين انبثقت، ولا كيف سكنت بجواره في لمح البصر، لقد نزلت كالقدر المستعجل جالبة ببلوزتها المتلألئة المزركشة رائحة عطرية مهيجة.. شعرها سابح في الهواء، مجدول جدلتين ومطوي بمنديل صغير من الدانتيلا.. وسرعان ما أثبتت رأسها لصق كتفه، وجعلت تهزه على طريقتها في التدلل وعند الاستعداد لطرح الأسئلة.. بدت تتفحصه من جانبه بعينين محاذرتين، ما لبثت أن ذهلت لأنها لم تجد منه أية استجابة أو حماسة، كان فاترا سارحا في عالم آخر.. فجأة رأت شعرة دقيقة ممدودة على كاهله، لونها برونزي مائل إلى السواد، كأنما اقتطعت من جدلتها التي تشبه ذيل الخيل.. وفي سرعة قامت وقد علاها التغضن والاحمرار.. أخذتها وجعلت تحدق

فيها بانبهار، كأنها عثرت على مخلوق فضائي عجيب يبعث على الخوف.. ثم استدارت حتى استقامت أمامه شاهرة الشعرة بأنملين من أناملها، وصاحت متسائلة بحدة:

- ما هذي يا عبد القوي؟

قام ساعتها من على الكنبة بادي الانفعال، وساق الأولاد إلى غرفتهم وأوصد عليهم الباب بالمزلاج، ورجع إليها مسرعاً بخطى حامية، وهي لا زالت ممسكة بالشعرة على هيئتها الأولى، وترمق إليه شزراً، لا تعي لدهشتها ما ينوي فعله.. ما لبث أن أجاب وهو ينتفض غضبا:

- إنها أفعى من رأسك يا تغريد، إن شاء الله تلدغك بالقلب (واستطرد بعد برهة، شاهراً إصبعه في الهواء): أصبحت لا أستطيع احتمال هذه الحماقات، هي كلمتان بيني وبينك أقولها بحضور المأذون..

سقطت الشعرة من أنمليها، وحدقت في عبد القوي طويلاً، وقد خامرتها الريبة بأنه ليس هو زوجها، وإنما هو

شخص آخر.. عبدالقوي الذي تعرفه مملوء بالاستكانة والرقة من أخمص قدميه إلى رأسه.. ولم يحدث قط أن رفع إصبعه في وجهها أو حتى صوته.. لا شك أن الدنيا قد انقلبت رأسا على عقب.. وتغيرت أشياء كثيرة في أنظمة الكون، وهي غافلة لا تكاد تشعر بشيء.. تأملت إليه ما شاء الله أن تتأمل. فانكفأ بصرها خاسئاً حسيراً، وكلما ذهبت النظرات إليه، وكلما آبت تزداد إيمانا أن ذلك الرجل الشاهر إصبعه في الهواء هو عبد القوي بشحمه ولحمه.. ولكنه بدا لها وكأن ثمة شيطانا رجيما قد ارتدى جسده.. لم تلبث أن قالت بنبرات مهزوزة:

- ماذا تعني بالكلمتين يا عبد القوي؟

- أبغض الحلال عند الله.. أجاب باستماتة..

اهتزت جميع خلاياها لهذه الكلمات، استقبلت وجنتاها دفقة حمراء من دماء الفجيعة.. اشتمت ببديهة الأنثى نذير الشؤم من إصبعه المشهور.. واستغربت أن يكون عبدالقوي قد استملك كل هذه الشجاعة، هذه المرة أحست أنها في عوز شديد إلى استدرار المغفرة، والانتقال بالحديث إلى منحى آخر..

استطاعت أن تبتسم بعناء، ثم قالت بمكر:

- عبدالقوي.. لقد نصحتني آنفاً باستبدال الشغالة، وهأنذا أرى أنك على حق، فقد باتت تشكل عبئاً ثقيلاً عليَّ وعلى الأولاد..

رد عليها عبدالقوي فاتلاً شاربه الكث بيده:

- أرى أن تستبدل بشغالة فلبينية صغيرة، سأتدبر أنا هذا الأمر..

ثم مشى من أمامها مَشْية حازمة، حابساً الفرحة في أعماقه، دخل غرفته ليبدل ملابسه، واستعد للغداء.. وما إن خرج حتى وجد السفرة قد أعدت والأطباق قد رصت، فأكل وعلى قسماته تنطبع المهابة، الأولاد حوله هادئون يخاتلونه النظر بتوجس ورهبة، وقد استشعروا أن ذلك اليوم مختلف عن غيره من الأيام..

صنعاء ٢٠٠٥م

وعاء التبغ المفقود

رأت الحفيدة الكبرى جدتها تجفف أوراق التبغ بهمة وصبر، ثمة تشققات تعلو شفتيها وقشور بيضاء جافة، لكنها تبدو في غاية السعادة تهمهم بلحن أغنية شعبية قديمة، هكذا تفعل كل يوم في وقت العصر تعد (المداعة) إعدادا جيداً، وتنفخ في القصبة الطويلة حتى تتصفى.. ثم تركبها في الثغر البارز لعلبة النحاس التي تحوي الماء وبعد أن تجفف أوراق التبغ تدقها في وعاء التبغ الصلد بخشبه الكالح اللون حتى تحولها إلى فتات، ولا تلبث الجدة أن توجه أوامرها الحادة إلى حفيدتها الوسطى بأن تضع فتات التبغ على وعاء الفخار المخصص.. وتأمر الكبرى أن تلتقط الجمر والرماد بواسطة ملقاط الجمر، لتكلل فتات التبغ بكوم من الجمرات الملتهبة والرماد الفاحم، أما هي فتقبع في رأس المجلس تمج ثغر

القصبة مصدرة قرقرة منتظمة، وتشفط الدخان وتطلقه خارج صدرها كأذيال الثعالب، وهكذا حتى حلول الليل.

أرسلت الحفيدة إلى جدتها نظرة لا تخلو من المكر والبغض، وبدت تتقنص وقتاً للتفكير، لكن الشرود أخذها بعيداً، وأجبرها أن تستعيد جزءاً من تاريخ جدتها المثير الحافل بالزعيق والضوضاء..لا يعرف أي شخص في المنزل عمر الجدة الحقيقي حتى هي نفسها لا تعرف بالضبط متى ولدت.. كانت حسب قولها صبية وبكفها شطيرة خبز تأكلها بنهم يوم هبط الأتراك على ساحل عدن.. تذكر جيداً أنها في ذلك اليوم كانت تلعب وتجري كالعفريتة قرب المنزل..وجاءت أمها سعدية واحتملتها قسراً إلى جوف المنزل خوفاً عليها من أقدام الغزاة، ولا زالت تحفظ في مخيلتها صورة أويس باشا بطربوشه الأحمر، وقد وصفته بدقة متناهية ببدلته الكاكي الزيتية وأنفه الأفطس والحدبة البارزة على ظهره.. زعمت أنها رأته عند عبوره شارع الشعب راكباً عربة يجرها حصان قوي..هاهي بعد قرن على أقل تقدير لا زالت تتعامل مع وعاء التبغ بثقة

واقتدار، بل تستطيع أن تشك الخيط في ثقب الإبرة على ضوء مصباح البيرومكس، أذناها كأذني الكلب، السلوقي تلتقطان أدق الأصوات وأصغرها..

في يوم أغاظت حفيدتها ودب بينهما جدل مرير انتهى بـ(رهان).. الجدة زعمت أن قطا يمشي على سطح المنزل، والحفيدة تنفي وتتهم جدتها بالهذيان والتوهم. تقول الجدة بعناد متزايد:

- بل هو القط الأسود الشرير والمخاتل الذي تتحاماه الجارات ويحاذرن من عبثه بالطعام..

صعدت الحفيدة الوسطى إلى السطح لترى أيهما أصوب قولاً، فوجدت القط الأسود يتمشى على السطح، ويبحث عن نافذة مفتوحة، وبهذا تكسب الجدة الرهان.. منذ تلك الوهلة وكل أفراد المنزل يحترمونها ويتفادون إغضابها.. حتى الحفيد الصغير الكثير الشقاوة تاب عن استراق الحلوى من صندوق أمه، لأنه لو تسلل ستلتقط أذناها وقع قدميه على الأرض مهما صغرت.. هكذا اعتقد، وهكذا ترسخ في ذهنه.. ليس هو

الوحيد الذي يخشى سمع جدته الحاد، بل إن كل الأحفاد والحفيدات يتحركون باحتراس وتأن.. ويتبادلون الحديث باحترام وخفوت..إذ توثق في أذهانهم أن جنياً يسكن رأس الجدة.. ويوحي لها بكل ما يدور في المنزل أو بمحيطه..استغلت الجدة هذا الاعتقاد المتجذر في نفوس الجميع، وكانت قد شعرت به وقادتها الصدفة إلى استراق حديث دائر يؤكد ذلك الشعور.. فصارت تهيمن وتأمر وتزجر، وأحياناً تحطم الأطباق والكؤوس وآنيات الزهر، أو أي شيء آخر يقف في طريق كفيها، تفعل الجدة هذا متى أغاظها أحدهم كتعبير عن استيائها، وقد تعمد إلى ذلك تمهيداً لشيء تود الحصول عليه وامتلاكه.. فيظل الكل يستلطفونها، ويستعطفونها، ثم يبحثون ملياً عن حاجتها حتى يعثروا عليها فيلبوها حالاً دون تأخير.. كثرت حاجات الجدة وازدادت انفعالاتها يوماً بعد آخر، حتى ضاق الأحفاد والحفيدات ذرعاً بأفاعيل جدتهم وعصبيتها غير المبررة..

* * *

وجدت الحفيدة الكبرى نفسها خلف جدتها مباشرة في وضعية مريبة وغير لائقة.. والأخيرة دائبة على تجفيف أوراق التبغ، شعرت الحفيدة ناحية جدتها بكراهية معتقة في أعماقها، وتوشك أن تنبثق كالقيح، فراحت تحاذر أن تلتفت جدتها، ومن ثم تجدها متلبسة وراءها بلا مبرر.. أرادت الحفيدة الانسحاب،لكن الجدة رأت طيفها بغتة على زجاج النافذة المفتوحة فقالت دون أن تلتفت بصوت خشن:

- قفي مكانك..إنك تتسللين كاللصة وتظنين أني غافلة عما يدور خلفي.

- بل جئت أبحث عن ملقاط الجمر و...

وهبَّت الجدة قائمة وقاطعتها قائلة بحدة :

- إنكم تتمنون أن أموت، لكني سأدفنكم جميعاً.. أدركني يا عرعوط أدركني.

انقلبت إلى عاصفة هوجاء.. انبرت كعادتها تحطم كل شيء أمامها هاتفة باسم جنيها المزعوم..

رأى الحفيد الأصغر لعبته القشيبة تتحطم على بلاط الصالة.. ذلك الدب البلاستيكي ذو الطبل الأبيض صار حطاماً.. كاد يبكي بمرارة، لكنه أدرك أنه لن يجني أي شيء من البكاء سوى قرعة أو قرعتين على رأسه من عكاز جدته.. فما كان منه إلا أن سارع إلى وعاء التبغ المليء بالأوراق المجففة، وأخفاه تحت قلنسوته مستفيداً من الضجيج السائد حوله.. وانزوى يحتق في جانب غير بعيد من الصالة.

صنعاء ٢٠٠٣م

برج العقرب

(١)

لم يكن "باسم" بحاجة إلى اكتشاف الوقت، فما أغناه عن تصفح ساعته حين دبت بين زغب أنفه المستقيم روائح نافحة من الشواء، وإن لمطاعم حضرموت المتسلسلة تحت جل عمارات الشارع المتصفح وجه عمارة الجريدة، فضل هذا الفوح الطيب المتكرر كل ظهيرة.. وما هو بالحاضر الوعي في بهو المكتب، حتى يحس ويستشفي بهذه النعمة الزكية، وإنما غائب في حياة الهمس الخفي والتفكير المعمق.. لا يني ينقر بمؤخرة قلم جاف ركن خادعه نقرات خفيفة متمهلة.. ويسترجع السالف المركون على الملف السري المسخوط منه والمغضوب عليه في مقتبل عمره..

ولاسيما سنوات البلوغ الحمراء.. ويا لها من وهلات حرجة ازدادت فيها الخفقات، وانشدّت عضلات القلب

وخلايا الدماغ في آن واحد.. واستشرت الأسئلة والأجوبة، ولبثت ما قدر لها أن تلبث، ثم غدت إلى لا شيء.. وكل شيء -حتى تلك اللحظة مبهم،وما هو متأكد من صحته هو أن عمه "جبران" عضو البرلمان قد قلب الدنيا عليه، وأوجع رؤوس مسئولي الأمن الكبار بالهاتف، وهو يلح عليهم بالتحري عنه، وقد رأى بعينيه كم عُلِّقت في الأماكن العامة ملصقات تحمل اسمه وصورته، وكم ردد المذياع أوصافه وما يرتديه من لباس، ولعل جده الطيب الشيخ "سالمين" المتخذ سكنه في القرية قد مارس على عمه ضغطاً، متهماً إياه بالتقصير في رعاية حفيده اليتيم، هذا إلى جانب شفقة اتسم بها عمه في معاملته له.. شفقة لم يطمسها المنصب، ولم يكن "باسم" بالذي يحتقرها أو يجحد بها، بيد أن الزمن لا يتروى أو يتأنى لحظة، يسرع في سكون حتى لا يكاد يشعر به أحد، هاهي سبعة أعوام انطوت كيوم أو ساعة.. فمن كان الرابح في هذا الزمن المنطوي ومن كان الخسران!!

ففي منزل عمه الجميل القائم في درب السيدة أروى بلواء إب عرف عقدة النساء.. عرف ندى ابنة عمه تلك المراهقة

المشاكسة، لا تفتأ تغيظه كلما سنحت الفرصة.. فتسدل دونه القناع، بينما تدع المراهقين من أبناء عمومته ينعمون برؤية وجهها البض. ويشبعون من جمالها الآسر، أما هو فيبدو كأجنبي منبوذ، تنفر منه كلما جاء، وتجيء إذا أدبر.. وفي أحايين تعذبه بكلمات جافية سخيفة، متباهية أنها وليدة المدينة وربيبة الجاه والتحضر..

هرب ليلاً إلى صنعاء، ولجأ إلى شارع واسع اقتعد على رصيفه متعباً، وبين يديه رزمة أوراق استهلها بقصص من نسج خياله.. أحس برجل نحيف ذي نظارة ذهبية وربطة عنق رمادية متسمراً وراءه يرنو إلى أسطر غير منظمة تحت عنوان عريض "لا أحب النساء"..

سارع الرجل وأخذه في سيارته ورماه في مكتب صغير بمبنى جريدة يديرها..

واليوم هاهو "باسم" نائب رئيس التحرير وما جاوز الثانية والعشرين من عمره بعد، يدرس سنته الثانية في كلية الهندسة، وعلى وشك إصدار مجموعته القصصية الثانية..

لم يتبين متى ولج الساعي ووضع القهوة أمامه، لكنه انتبه إلى اصطفاق الباب حين خرج فرشف رشفة بحذر، وخطرت في رأسه خاطرة كالحلم فلستظرف هذه الخاطرة، وهمس لنفسه بزهو : ((لا أراني مبدعاً بحق إلا إذا استحوذت على قلب "ندى" ابنة العم جبران وأخذت ثأري القديم بالكلمات))..

وخطف قلماً من علبة مفتوحة مدججة بعشرات الأقلام المتنوعة، تقع يساره وكتب في استغراق : "هذه مأساتي وحدي، وسألقيها زخات زخات كي لا تصيبكم بأذى، عسى أن تصل إلى ابنة عضو البرلمان، حفيدة إقطاعي شهير هو جدي وأنا حفيده اليتيم، لترى أنني ذلك النَّفس الصغير الذي زفره الريف، فتاهى حتى انقلب إلى سحب خيالية تشن النقاهة على ناصية الطبيعة الحية.. (ند..) أنا أعرفها، تلك الطفلة المغرورة، كانت وراء الظلمات تسرح وتمرح، وتذوي حيث تشاء، وألقابي.. نعم.. ألقابي الخمسة تتداعى من فمها بصورة دائمة، وأحفظها عن ظهر قلب (ريفي، عجري، يتيم، قذر، متخلف) لكنني الآن فخور جداً بها، لأنها جعلتني أسقط من النافذة،

لأقع على ظهر نورس شائب فارقه السرب، قادني إلى مدينة لا تقطنها النساء، وهناك رأيت خيطاً رحيباً يتدلى من كبد السماء فأمسكت به على الفور، وحينئذٍ جاءني ملاك مضيء قال : أحسنت صنعاً أيها اليتيم.. أنت الآن من عيال الله.. فهو عز وجل يدرك أنك بلا عائل..

في يوم آخر رأيت شموساً كثيرة تتداعب أعلاي في ازدهاء. وكأنهن جواهر ولآلئ تاج أهداه الله لي نظير جَلَدِي، وعزوفي عن (ند..) ربة درب السيدة أروى، وجاء بشير وحيي لم أره. لكنه قال بلهجة آمرة : يا هذا، خُذْ روحك المتألقة المرفرفة وعُد إلى مدينة الرجال والنساء.. وستعود ربة درب السيدة أروى من حفلة تنكرية عارية مرقدة على محفة سئيمة.. تئز في الفراغ الممل أزيز نحلة في الشتاء الجديب، دعها وشيطانها يلهوان، فعساها تقترن بالشقاء...

عجز "باسم" عن الكتابة بغتة. حيث تصلبت جملة ضريرة في ذهنه، جملة كانت مهولة قاسية، كما لو تلصصت على الغيب وجاءت بنذير رديء فظيع، فقد كاد يجزم أن الساعة

ستقوم عليها فقط، وأنها ستحاكم علانية أمام الله والخلائق، فنفد المداد من قلمه أولاً، ثم سكتته رجفة مذهلة، ناهيك عن دمعة يتيمة مكعبة الشكل هوت في مرارة من عينه، فوقعت على لفظ "الشقاء" - في حين لا زال منكباً جامداً فوق القصة - فأذابت حروفه، ولم تترك غير رتوشاً سوداء ونقاطاً كوشم الهنود.. ورغم كل هذا تجاهل الدهشة التي حلت به ومدَّ أنامله إلى العلبة وانتزع قلماً آخر بلا عناية أو تنقيح، وأضاف وراء ما كتبه بعبارات تهكمية:

"سألجأ إلى (الفأل) الذي كانت تؤمن به جدتي وهي تحكي لنا (أنا وأنت والصغار) حكاية (رمادة وجِلَيْد الحمار)(*)، ولعل صوت محرك سيارتك "المرسيدس" قد مسخ حواديت جدتي في ذاكرتك إلى فراغات هوائية منسية.. سوف أحرز (فألك) يا ربة درب السيدة أروى، وأؤكد قطعاً أنه لن ينأى عن أيامك القادمة.. عُذراً، فذلك نزوع يخالجني وربما نبوءة، وقد تكون سخافة أو دعابة أو لا شيء.. وأيما كان فهو ضرب

(*) رمادة وجِلَيْد الحمار: حكاية من الأساطير الشعبية.

من ضروب الحدس الحاد. يقول (الفأل) أنك ستفتعلين شجاراً حامياً في المنزل، ويدب خلاف طفيف بينك وبين صديقة عزيزة في العمل لكنه يزول سريعاً.. أنتِ قادمة على مشروع عاطفي رابح، فلا تترددي في العمل الجاد فيه.. أمامك عرض مغرٍ، وعرض رديء، لكنك ستنجحين إذا اتخذت قرارك بنفسكِ فيما يخص حياتك.. يوم الحظ الخميس"..

وضع "باسم" اسمه الحقيقي وليس المستعار الذي كان يتستر به، ونوه إلى ذلك، وختم الورقة برقم بريده العادي، لم يلبث أن استرخى وزفر الهواء المحبوس ثم أودعها وسط غلاف ورقي وهو يطلق ضحكته المرحة، ويتفكر بشأن ألفاظ (الفأل) الغريبة، تلك التي استرقها من أحد بروج الحظ في مجلة "زهرة الخليج" وكانت أمامه منشورة بالصدفة.. غادر المكتب وقتئذٍ. وقبل أن يرتاد مطعمه المفضل ليتناول طبقي "العصيد" "والفحسة" وقبل أوبته إلى غرفته لينام ساعته المعتادة، وقبل كل شيء ارتاد البريد في الشارع العام وأودع قصته في بريد صحيفة الثقافية، ومضى إلى المطعم وهو يهمس بغبطة عجيبة:

"برج العقرب هو أشأم بروج الحظ في ظني، وهو نجم ناري، كل مواليده مغرورون"..

ثم في توهان :

- ياه.. ليتني أعلم كيف حالها الآن! وبأية سمات تتحلى، فقد كانت في غاية الجمال!! تُرى هل سترد؟

(٢)

في مدينة (إب) انطلقت سيارة المرسيدس الرصاصية من درب السيدة أروى بسرعة مخيفة، وبعد دقائق وقفت في فناء كلية الطب، بقوة، فأصدرت الإطارات الخلفية للسيارة صيحة مزعجة على الرخام.. فكّت ندى جبران حزام الأمان في السيارة واتجهت ناحية قاعة المحاضرات بخطى متوترة.. كانت نظرات طلاب الكلية تلتهم جسدها المعتدل بخبث، وكل واحد يمني نفسه بالتفاتة ولو عابرة منها إلى وجهه. ولكنها كما عهدوها متطاولة، تمشي بخيلاء.. كما صاروا

يلقبونها "ومض البرق" لأنها محتدة سريعة لا تقف في مكان عام. ولا يرونها إلا عند نزولها من السيارة أو عند صعودها إليها عائدة إلى درب السيدة أروى.

ظلت ندى تائهة عن حديث الدكتور المحاضر، تهمس لنفسها بسخط :

"لن أرضخ لإلحاح أمي، ونصائح أبي.. ابن المحافظ شاب خليع، وله سمعة زي الطين".

وما إن فارق الدكتور القاعة حتى عبرت الممر المؤدي إلى استراحة الطالبات، وجلست بجوار صديقتها سوسن. بلا شعور مدت أناملها وأخذت صحيفة "الثقافية" من أمام الأخيرة، وطرحتها فوق فخذيها.. بدت الصفحات منبسطة كذراعي عابدة شاخصة إلى السماء في هدأة فجر، بعد أن أصابت ذنباً جسيماً.

ربما خالجها نزوع ثقافي سهواً، ولا شأن للعناوين البراقة في تحريك رغبتها شبه المعدومة صوب جنون الأدباء والكتّاب.. بل كانت تنقب عن صفحة الحروف المتقاطعة

لتملأ مربعاتها البيضاء.. بغتة صار شق جسدها الأسفل يرتعد، لاسيما البقع التي رست عليها الصحيفة.. وهي لا تدري ما هو سبب ارتعاد ساقيها واقشعرار المسام المحتكة بالسطور!! وسوسن تكاد تنفجر حنقاً بالقرب.. صارت مسلوبة الإرادة، في وقت خصصته سلفاً لقراءة "الثقافية" وهكذا حالها كل خميس، ولكن زميلتها "ندى" تعكّر صفوها، وتستأثر بالصحيفة، لا لتقرأ المفيد والضروري وإنما لتستمتع بالكاريكاتير المضحك والحروف المتقاطعة.. وبهذا تحرمها المتعة التي خططت أن تحظى بها في الاستراحة، وفي وقت فراغ مريح يفصل بين المحاضرات، فمذ ابتاعتها من كشك العم "جواد" وهي تطمع بلحظات جميلة مع القصص والأشعار، ولكن لا جدوى، لن تهنأ بشيء، وندى لها بالمرصاد كالشيطان المتربص بالمؤمن في محرابه.. كانت تلك البرهات أمضى على نفس سوسن من سكرات الموت اللاسعة.. أزمعت أن تجتث خجلها وتصارح صديقتها بما يجول في خاطرها من امتعاض.. تحذرها أن تعود إلى خطف الصحيفة في المرّات

المقبلة لن تتملق أو تجامل، ستتحدى، وليكن ما يكن.. فقطبت جبينها، وقالت بضيق خالطه الحياء:

- بلا إحراج يا ندى!! من فضلك ناوليني الصحيفة. وابتاعي لك غيرها، فهي غير باهظة الثمن يا بنت الأكابر..

جاءها صوت "ندى" مخنوقاً، وهي تقول بذهول:

- يا إلهي!! نصف جسدي الأسفل يرتسف! والشق الأعلى ساكن!! ماذا حل بي يا ترى؟

- هاتها أيتها المبتزة! ألا تدركين أنك تزهقين أفكار الكتّاب فوق فخذيك اللعينين؟

أعلت ندى الصحيفة على الطاولة بتوتر، ثم زحلقتها إلى سوسن بسرعة، وقالت بغضب :

- خذيها، فليس بها ما يفتح الشهية. أشعر الآن أنني أحسن حالاً من ذي قبل و..

بترت الكلام فجأة.. لمَّا استقرت عيناها على عنوان بارز على الصحيفة ((ربة درب السيدة أروى)).. وأدناه اسم

"باسم" وصورته، لحظتئذٍ ارتسف جسدها برمته.. فصعقت قائلة وهي تتهجى العنوان:

- (ربة درب السيدة أروى)؟.. يا الله!... ها هو الفتى الضائع يظهر وسيما أنيقاً بعد غياب دام سبع سنوات!! لقد أضنانا البحث عنه، وبسببه هجر جدي منزلنا..

- أنا أقرأ له دائماً في صفحة السرد، وهو كاتب قصة قصيرة، وكتاباته تدهشني كقارئة مدققة تهوى كل ما يؤجج الخلجات الباطنية للمرء.. هاهي ذي صورته، واسمه الحقيقي، وعنوانه. قالت سوسن بثقة..

- إننا عائلة شغلت بالماديات، ولكن "باسماً" قبل اختفائه كان يتشبب بي بأشعار جميلة لم أعد أذكرها، لكنني كنت أبدي له البغض لكي أجتذبه، تماماً كما تفعل بنات الأثرياء في الأفلام الرومانسية.

ثم ضحكت لتمحو توترها وتأثرها إرضاءً لغرورها، فقالت سوسن بلهفة:

- أروِ لي يا صديقتي! أهو قريب لك؟ وهل ندمتِ على ما فعلت؟؟

- كيف لا، إنه ابن عم لي مات أبوه وهو في طور الرضاعة، ولحقت أمه أيضاً، ولما كبر تكفل أبي بتربيته وتعليمه، وكان جدي سيتكفل به ويرعاه لولا بُعد المدرسة عن القرية من جهة، وتدهور صحة جدتي من جهة أخرى، فعاش بيننا في أحسن حال، ولكنني صراحة كنت أؤنبه. وأهزأ به، وأنعته بالقروي، واليتيم.. وهذا ما حدا به ليهرب ذات ليل إلى غير رجعة..

وران الصمت لبرهات. إلى أن أضافت :

- دعينا نتصفح القصة لنرى ما وراء هذا العنوان الهادف.. وكفانا لوماً للنفس.

دنت سوسن إلى جانب ندى واسترسلتا في قراءة ساكنة، ومع كل سطر تفارقه عيناها تأسى وتتأثر ويتفاقم الضغط على قلبها المقبوض الخافق بشدة.. وعند نقطة ما اتسعت عيناهما ذهولاً، كانتا قد استقرتا فوق كلمات (الفأل) أو بالأرجح

عبارات (برج العقرب). لكزت ندى صديقتها سوسن، وهتفت بصوت شاب نبراته تضخم :

- انظري هذا الشيطان! كأنما يراقب أحوالي، ويتجسس عليَّ. إن (فأله) صادق. ماذا أفعل؟

كانت القصة في آخرها، فأشارت سوسن إلى رقم صندوق المراسلات.. وقهقهت بدلع، ففهمت ندى ولكنها هزت رأسها في شموخ، وقالت بإباء :

- لا. لا. هل أنتِ مجنونة حتى تقترحي أن أراسله عبر البريد؟ سأجعل أبي يتولى هذا.

- أمّا أنا فمعجبة به، سوف أضع له رسالة وهذه فكرة ليست وليدة اللحظة، ولكنه لم يكن يترك رقم بريده من قبل..

- إذا أردتِ أن تدوم صداقتنا، لا تفعلي ذلك يا سوسن. قالت ندى بنبرات جاده..

- ما هذا السخف!! أتحدِّين من حرية تصرفي كما لو كنت ولي أمري؟

- أرجوك افهميني عزيزتي!! أنا فقط لا أود أن تتورطي بشيء آخر.

فهمت سوسن ما يشغلها من خاطر، فابتسمت وأجابت بمكر:

- أنا معجبة ولست عاشقة، حتى وإن حدث ما تخشين حدوثه، فما يهمك في الأمر؟

قالتها وانزوت تكتب في ورقة صافية البياض، مستندة على طاولة الاستراحة القانية اللون.

ولما اختتمت الرسالة أخذت الجريدة الملقاة على ركن في الطاولة، وهمهمت بصوت غامض، ورنت بتعمد إلى ذلك الوجه الملتهب الغيور قبل أن تسير جهة بريد الكلية بثبات.. سارت ندى وراءها، وفي تواضع جم ربتت على كتفها، وقدرت أن تقنعها بأن تتمهل هنيهة، ريثما تخط رسالة مماثلة، ومن ثم ترتادان البريد معاً.. كانت الغيرة ضيفاً ثقيلاً - لأول مرة - في قلب ندى، وربما ساورها الظن أن رسالة سوسن لو تصل إلى يد "باسم" قبل رسالتها، ستستملك قلبه، وهي الأحق بذلك حسب زعمها..

وقد احترمت سوسن رأي صديقتها، فتريثت حتى ختمت الأخيرة الرسالة، ثم انطلقتا سوياً إلى قسم البريد الطارئ، فأودعتا الرسالتين ناقدتين العامل رسوماً أكبر مما ينبغي في حالة الإيداع في البريد البطيء..ثم آبتا إلى الكلية، وآب لهما الوئام الغائب.. وتعززت الصداقة أكثر بينهما.

(٣)

وفي الجانب الآخر أقبل ساعي بريد صحيفة "النهار" إلى مكتب "باسم" نائب رئيس التحرير، وبين يديه طردان بريديان مغلفان بغلافين فضيين.. فعالج الطردين، وانتزع من الطرد الأول ورقة ورد فيها:

"إن كنت تقصدني في القصة المنشورة في العدد رقم (٢١٠) من صحيفة الثقافية، فما الذي ذكرك بي بعد أن أسأت إليك؟ فماذا تريد مني بالضبط؟ إن كنت تود أن تثأر لنفسك مني، فقد سبقك إلى مرامك الوغد ابن المحافظ، لأنه جاء يطلب يدي بلا وقار، ولم أطق سماع قهقهاته التي شرخت حيطان منزلنا.. ويكاد أن ينال مراده بمؤازرة والديَّ.. ولكنني

عصية على كل طامع.، وسأقاتل بأسناني وأظفاري لكي أمنع هذا الأهبل من التحليق حولي، لأنه جاء عبطاً يحسبني سلعة بائرة أو مشروع عمل تحت المناقصة.. أما أنت فقد طرقت بابيْ الروح والقلب برفق وهذابة فلا أحسبني أقاوم سحرك أو أشجب (فألك) الصادق.. وقد قبلت بالعرض الذي طرحته عن قناعة.. وأعتذر عما سلف، فقد صرت اليوم فتاة راجحة العقل تنظر بعين القلب والروح، وهذا الخميس ـ كما قال (الفأل) ـ يوم حظي.. ولا شك أنك حظي يا (باسم).. وفي يوم غد الجمعة سأزور جدي في القرية، وأبشره بأوبتك، ويوسعني أن أمكث أسبوعاً هناك. إلى اللقاء".. (ربة درب السيدة أروى)..

لما أنهى آخر الكلمات، ابتسم، وأشرق وجهه.. راح صدره يرتفع وينخفض. يحلم بأجنحة تطير به إلى القرية. كم سيفرح جده المكروب، وكم ستفرح هي حين تراه في طور الشباب.. كم ستخجل من الماضي وتلعن أيامه الخائنة.. كم وكم سيفرح هو ويؤلف أقاصيص للحب والصفاء.. وكما تجاهل أحقاد سنوات البلوغ الحمراء، تناسى أن يفتح الطرد الآخر وهو يفكر بجدية فيما إذا كان بوسعه أن يقبل دعوتها الذكية أم لا..

صنعاء ٢٠٠٤م

أحان الصخور

ابتسم الشاب سليمان سالم وهو يومئ إلى تلك الخرائب وباقي السد الأثري الجاثم على رأس الوادي... التقط جورج صوراً عديدة للصخور الضخمة المبينة على حافة السد المهدم ثم أخذ يهرجل للمترجم سائلاً عن سكان تلك السلسلة الطويلة من الأطلال الخربة.. بعدها أخرج من حقيبته اليدوية كتاباً منسوخاً باللغة الإنجليزية، وطفق يفسر صفحاته حتى وصل إلى مخطوط عليه نقاط سوداء كبيرة. أشار إلى السهم المتجه إلى إحدى النقاط ثم انتقل إلى ورقة أخرى عليها صورة ملونة لبقايا مبانٍ وسور حجري تهدمت بعض أجزائه...

أخذ جورج وليم الأمريكي الجنسية يقارن بين الصورة في الكتاب وتلك المحيطة به، تألقت عيناه فجأة وقال للمترجم في ما معناه:

- سلْ السيد سليمان عما يعرفه عن هذه الآثار وسكّانها..

حدس سليمان كلام جورج بالرغم أنه لم يفهم من هرجلته سوى بضع كلمات ركدت معانيها في ذهنه منذ دراسته في إحدى دورات المعهد الأمريكي قبل أعوام.

فقال رافعاً يده وملوحاً ناحية الخرائب الكثيرة :

- هذه البقعة الخربة سكنها اليهود وسميت باسمهم ويقال إن اسمها الأصلي قرية (الأمراء).

ظهرت اللهفة في وجه المترجم وقال بصوت قوي :

- منذ متى قطن اليهود هذه القرية المزعومة؟؟

- جدي عمره الآن مئة عام وقد أخبرنا أنه يعرفها كما هي عليه الآن.

- وماذا تعرف أيضاً عنها؟

- قيل أن سكانها كانوا أغنياء جداً لدرجة أنهم كانوا يمسحون فضلات الأطفال وأدبارهم بشطائر الخبز.

- وأين ذهبوا بعد ذلك؟؟

- يقولون إن الله أرسل عليهم جيشاً من النمل وكان حجم النملة كما يزعم الناس بحجم الماعز الصغير فطردتهم تلك النمل من القرية.

- والسد : ماذا عنه؟

- يزعمون أنه كان عميقاً جداً، إلى حد أنهم كانوا يضربون بالطبول في قعره ولا تبلغ أصواتها إلى حافته..

- السد قريب جداً من القرية وربما تسرب الماء....

قاطعه سليمان قائلاً :

- هذا جائز فقد وجد أحد النباشين تنوراً فخارياً ما زال به الفحم.

- تقصد أنها طرأت عليهم ظروف قاهرة لم تمهلهم حتى يرحلوا بسلام؟

- نعم وذلك لأن الفخار والأواني التي وجدت لم تكسر بعد!!

- لقد غاصت بهم الأرض إذن وذلك بفعل مياه السد المتسربة!!

- ربما..

- هل تأتي بعض العناصر اليهودية إلى هذه المنطقة؟

- استيقظ الأهالي ذات يوم ووجدوا حفرة منبوشة وتذكروا أنهم رأوا في اليوم السابق يهودياً قرب هذه الخرائب.

هزّ سليمان حاجبيه مؤكداً على قوله، ثم مضى يلاحق بعينيه المشدوهتين حركة السياح فوق صخور السد المندثر، وفطن إلى الشبه الكبير بينهم وبين الجراد الأصفر الذي ملأ القرية قبل سنة، وأكل النباتات والمراعي.. بل إنهم أشبه ما يكونون بخلية نحل عاكفة فوق أقراص الشهد.. ولوحظ جورج قائد الفريق متسمراً بين صخرتين، يتفحص التربة بعدسة دائرية بيضاء، ومنظار اسطواني طويل.. وكأنما تنبعث من الصخور الداكنة المعفرة بالتراب ألحان شجية وموسيقى هادئة تخدر الأعصاب.. ولأجل هذا تراه مشدوهاً بها مدنفاً.

وأوشك سليمان أن يهب لمساعدته ظناً منه أنه نشب بين الحواف الصخرية المسننة اللائحة للعيان، ولكن سرعان ما شاهد قدميه المنتعلتين بحذاء رياضي متين، تنسلان إلى موقع آخر بخفة يحسد عليها من كان في عمره.. وفي هذه اللحظة التقط مقطعاً من ثرثرة المترجم عن جورج وموهبته في الآثار:

- عندك المليونير جورج مثلاً، عمره سبعون عاماً، يتسلق الجبال كالقرد، ويتنقل بين الأطلال والخرائب القديمة لينقب عن آثار الأولين، وستلعن أباه لا شك، بل ستستغرب لأن هذا المهووس بآثارنا وهذا الماثل أمامنا هو أغنى من كل الأغنياء.. تصور هذا...

لم يَعِ منه بعد ذلك أي كلمة.. وكان وقت الظهيرة قد أزف ،وبدت الشمس ترسل أشعتها إلى جسد الأرض بلا رحمة، بينما هرب سليمان محتمياً منها بظل شجرة قريبة. وقرفص واجماً، أما المترجم فقد لاذ بسيارة فريق السياح.

صنعاء ٢٠٠٢م

رؤيا بين أشلاء الجنود

دلف المساء على تلك الثكنة العسكرية الجاثمة عمق العاصمة السياسية فارتدى البعض الزي العسكري الشتوي وذلك لغرض الحراسة والإشراف الليلي الدؤوب. أما الجزء الأكبر من الجنود فقد اتجهوا إلى الصالة الرياضية الترفيهية الحديثة البناء، فترى هنا شلة الشطرنج وفي الجانب المقابل يلوح هواة البلياردو، وفي ذاك الموضع الهادئ يتجلى عشاق التلفاز، وعلى هذا النحو تتكوم الأعداد العديدة من الجنود فوق عدد كبير من الكراسي المريحة ومن ثم يزاولون أنشطتهم المحببة إلى أن تدق عقارب ساعة الصالة في الوقت المحدد على لائحة الانصراف.

كان هناك عريفان شابان قد أصابهما السأم من هذه الممارسات الروتينية شبه المستمرة في الموقع العسكري. لذا

فضّلا الحديث الجانبي على تلك الألعاب، فأخذا يمشيان في أحد الممرات الممهدة بعناية حتى وصلا إلى تلك الجنينة الرائعة القائمة أمام قاعة المؤتمرات الكبرى، وهناك جلسا يتحدثان عن أمور ومواضيع عديدة، إلا أن غرامياتهما كانت هي النقطة الدافئة في ذلك الحديث.. مر ضابط الميدان (ضابط عظيم المسكر) وهما على هذا المنوال فوق العشب الأخضر مستلقيان والأزهار من حولهما تتمايل بفعل تيارات الهواء الخفيفة، والقناديل ومصابيح الكنبات القريبة تعكس وجهيهما مع بعض شتلات الورود المتربعة معهما تحت بؤرة الضوء الأصفر الساقط من أعلى.. مد وهيب يده إلى إحدى الورود القريبة وهو يقول لصديقه بنزق :

- لا أعرف كيف أعبر لها عن حبي..

رد عليه في ثقة عمياء وبإيقاع صوتي رصين :

- كن جريئاً مثلي فقد امتطيت صهوة قلبي وصرخت في وجهها أحبك يا هيام.

- فريدة عنيدة جداً ولا أظن أنها أنثى مطلقاً..

- أُف.. أُف. لم تفهمني بعد.. لكل فتاة فارس بحيث يفتش عن كلمة السر المندسة في قلبها ثم يقتحمه بسهولة.

-ولكن يا محمود...

أتت في تلك البرهة إلى مسمعهما بحة قوية مفتعلة من الخلف، فأدارا رأسيهما إلى مصدرها. كان ذلك الرجل الصارم الملامح واقفاً على الرصيف القريب منهما والهيبة العسكرية تكاد تنطق بملء الصوت على لسان النجمتين والطير في كتفيه..

في ذلك الجزء من الثانية التي رآياه فيها، قاما بإلقاء التحية العسكرية المعتادة بحركة جريئة تعظيماً للرتبة وهما يقولان في صوت واحد: "عريف رقم... وعريف رقم.. جاهزان للأوامر والتوجيهات، انتهى البلاغ أخي".

كانا على يقين تام أنهما وقعا في فخ ضابط عظيم، ولكنه أذن لهما بالانصراف وقد أعجبته طريقة إلقائهما التحية قائلاً :

"انصرفا حالاً إلى النوم.. ففي الغد طابور القائد". في الحال دار العريفان وفقاً لمعايير الدوران المتعارف عليها ثم دقا رجليهما على الأرض وألقيا التحية مرة أخرى وانصرفا من أمامه في الحال.

وفي الساعة العاشرة تماماً.. شرعت أسراب الجنود تزحف صوب العنابر من أماكن مختلفة في الموقع، كان للرتب والأقدمية دور بارز في تقسيم الأحقيات والواجبات بين أبناء المعسكر حتى في جانب السكن.. فهناك عنبر الأفراد وعنبر صف ضباط وعنبر الضباط.. وفي ذلك العنبر الطويل المخصص لفئة العرفاء حتى رتبة المساعد الأول.. أخذ عدد من الجند لا يتجاوزون أصابع اليدين يقومون كعادتهم بالوضوء من خلال تلك النكات والترهات المتبادلة.. فاخترقت ألفاظهم المحتدمة جدران العنبر ووصلت إلى المرافق المحاذية في الخارج، إذ ترى أحدهم يقول والآخر يجيب عليه:

- أطفئ الأنوار يا ذيل الحمار.

- إطفاء النور ممنوع يا حذائي المقطوع.

في تلك الأثناء دخل العريفان وهيب ومحمود والمرح يطفو على شفتيهما وهما يتخاطبان بانسجام حذر.. والأول يقول:

- كنا سنقضي ليلتنا هذه في الزنزانة مع الصراصير والبراغيث..

- العقيد ناجي لا يتهاون في النظام العسكري غير أن...

سكت محمود حين ظهر النقيب عبدالباسط، ذو المزاج العصبي، والجزاءات العسكرية المؤلمة التي لا يتراجع عنها أبداً إذا وجد ما يدعو إلى ذلك.. ها هو (ضابط مستلم) اليوم، وقد جاء كي يعقِّب على نوبة النوم، ولا شك أن العقاب الجماعي هذه المرة سيكون موجعاً حقاً.. أسرع المساعد عبد الدائم وصاح على مجموعة الجنود الحاضرين قائلاً بوجل:

- الكُل ثابت بأي وضع..

تسمر الجنود.. في حين تقدم في تكلف زائد إلى أمام الضابط العنيد ودق قدمه اليمنى على الرخام بقوة.. وانبرى يقول:

- توجيهاتكم يا أفندم..

صرخ الضابط في وجهه قائلاً:

- أنت المسئول الأول عما يحدث كونك (حكيم دار) المعسكر..

أجاب المساعد بتلعثم:

- يا أفندم كنت على وشك ضبط الفوضى و...

- كُفَّ عن اختلاق الأعذار.. في الغد يكون الجمع بميدان الشوك عصراً.. والآن نم بالأمر..

- أمرك يا أفندم..

لم يكد الضابط يعد الرقم العددي الثاني حتى اندثرت أجسادهم فوق أسرتهم، وغرقوا في محيطات النوم مكرهين.. وهكذا تكومت أشلاؤهم على شكل سلسلة طويلة أحد أطرافها في كف الضابط والطرف الآخر في فك الليل.. قرب الفجر استيقظ العريف محمود وملامحه منزعجة.. وراح يقول

في صوت خافت : يا إلهي ما هذه الرؤيا الغريبة؟!!.. فرس أبيض وفرس بني..!! أراد أن يوقظ صديقه النائم قربه، لكنه عدل عن ذلك حين سمع وقع أقدام الدورية خارج العنبر..

في الصباح الباكر فتح البعض أعينهم، ورأى صديقه يتثاءب على فراشه.. فبادر إليه وطفق يذكر له الرؤيا التي أزعجت جميع حواسه قائلاً :

- "كنا معاً راكبين على حصانين، أما أنا فكنت على الحصان البني، وقد حاول أن يسقطني على الأرض لأني لم أستطع قيادته.. أما أنت فكنت على الحصان الأبيض، واختفيت عن ناظري".

ولما أنهى محمود القصة ضحك صديقه وهز كتفيه كأنه لا يبالي بأمر الرؤيا وقال:

- هذه أضغاث أحلام ولا تعني بالنسبة لي شيئاً.

- لا تقل هذا، فأنا أشعر بحساسة الرؤيا وبالذات هذه الفترة.

ثم أردف لصديقه: هيا بنا نذهب إلى المفسر.

خرجا من البوابة الرسمية للموقع إلى أحد مفسري الأحلام.. فكر الشيخ المفسر بعد أن استمع إلى تفاصيل الرؤيا كاملة قبل أن يقول لهما مؤكداً:

- "صاحب الحصان الأبيض سوف يفقد شخصاً عزيزاً عليه، ويلفونه بالثياب البيضاء، وهذا الشخص يحبك وأنت لا تدري بذلك"..

ثم التفت إلى محمود وأشار إليه قائلاً:

- "أما صاحب الحصان البني، فإنه كذلك سوف يفقد صديقاً أو حبيباً له، وقد لا يفقده إذا استدرك الأمر.. وهذا الشخص يحبك ولكنه غاضب جداً منك هذه الأيام"..

بعدئذٍ عادا وهما يتضاحكان من كلام الشيخ، وظنا أنه قد أخطأ في تصوره للأمر بالرغم أن هناك مؤشرات حقيقية في كلامه، إلا أنه بالغ في حديثه قليلاً. هما يحبان حقاً ولكن من

المستحيل أن يموت الحب بمجرد رؤيا عابرة في ليلة سوداء، كتلك الليلة المزعجة.. ما كادا يبلغان بوابة المعسكر حتى استدعاهما حارس البوابة.. ثم قال لهما :

- هناك رسالتان لكما.. ها هُما.

وسلمهما طردين صغيرين.. فتح وهيب (صاحب الحصان الأبيض) الطرد البريدي الخاص به.. ونزع من جوفه تلك الورقة المكتوبة. وقرأ ما كتب عليها.. إذ تقول على لسان صاحبتها : " إلى من أحببته يوماً ما لقد انتظرتك طويلاً.. ولكنك لم تأت، وعلى العموم أنت من المدعوين لحضور حفل زفافي يوم الخميس القادم".. ولاحظ على ذيل الورقة توقيع الناسية (ف).. أما محمود (صاحب الحصان البني) فقد وجد في ورقته الآتية من القرية التي غاب عنها طويلاً: " لقد فاتتك الحفلة التي أقيمت يوم أمس بمناسبة خطوبتي لطلال.. ولكن قد لا يفوتك العرس في الشهر القادم.. فلا تبخل عليَّ بالمجيء أيها الغائب المتجاهل.. وداعاً ". وفي آخر الرسالة : هذه من الغاضبة (هـ).

بعد أن قرأ كل واحد منهما رسالته وفهم ما فيها نظرا إلى بعضهما في وجوم وأسى ملحوظين.. وظل الهدوء يعزف لهما مقطوعة التنائي الشهيرة عند التعساء، أما الدموع فقد صارت هي اللغة الوحيدة التي دارت بينهما في تلك اللحظة.. ومع هذا فقد ذهبا بعد العصر مع من ذهبوا إلى ميدان الشوك..

صنعاء ٢٠٠٣م

روح الحبيبة

(١)

هذا الراعي يحلم أن تكون له طائرة شراعية يحلق بها في سماء القرى المندسة تحت سفح جبل (المنار). وتمرق من فوق رأسه حدأة كبيرة، فيهب قائماً ويراقب المكان الذي ترعى فيه صغار الضأن.. كان قوسه المطاطي كفيلاً بإبعاد تلك الحدأة الشريرة عن المراعي وقد فعل ذلك بطريقته الخاصة، وما إن زال الخطر حتى عاد إلى الظل ليسبح في الأجواء بطائرته الشراعية، وتتبادر إلى ذهنه صورة صديقته جيهان. هذه المرة الأولى التي يحس فيها بحرارة الشمس تفرص جسده الخامل. شعر بالنعاس يدغدغ عينيه القلقتين، لكن سرعان ما اتقدت جذوة انتباهه عندما رأى أخت جيهان مقبلة بأغنامها.. قطعت الحيرة مسافات عظمى في تقاسيم وجهه الدائري وهمس لنفسه:

"لماذا لم تأتِ جيهان إلى المراعي هذا اليوم؟"

حينها فض لـه طريقاً بين الصخور الكبيرة الجاثمـة عـلى صدر الشِّعب المعـشب، إلى أن وقـف فـوق رأس الفتـاة ذات الربيع الرابع عشر. وهناك تردد قليلاً قبل أن يناديها بقوله :

- يا سلوى!! احذري من الحـداأة فقـد خطفـت بـالأمس ماعزاً صغيراً على صديقنا رفيق.

أشارت بيدها قائلةً :

- أنظر!! إنها هناك تحوم فوق سماء أغنامك.

أخذ يلقم قوسه حصوة جاسرة وقال :

- لقد نبهتني إليها أحد الأيام جيهان قبل فوات الأوان.

علقت على كلامه بقولها :

- الابتعاد خطير ولا ينفع الندم بعد ذلك.

هز رأسه موافقاً وسنحت له الفرصة ليقول بدهاء :

- ما أغرب هذا اليوم وقد تغيب فيـه معظـم الرعـاة عـن المراعي.

- لا أظن ذلك صحيحاً.. أجابت..

- سعد ناب عنه أخوه، وتوفيق كذلك، وصفية لم تأت أيضاً!!

ردت عليه وقد أعجبها أنه لم يدرك غياب أختها وقالت بثقة:

- هذا صحيح ، لكنك نسيت واحداً منهم يا فالح!!

قال بتحدٍ متعمد :

- ما دليلك على ذلك. فأنا لا أنسى أبداً.

- جيهان أختي يا ناسي.

حين ذلك ضرب كفه على صفحة جبينه قائلاً بأسف :

- أوه... تباً لي.. كيف نسيت أميرة المراعي!!

ثم قطب جبينه وأردف متسائلاً باهتمام :

- هل كرهت الجبل والوادي والشياه؟؟

أجابته بصوت متهدج نافية ذلك :

- لا تظلمها يا فالح ، إنها مريضة.

شهق من الدهشة وقال باستنكار :

– هل قلتِ مريضة يا سلوى؟

– نعم إنها مصابة بالتيفوئيد ودرجة حرارتها مرتفعة جداً!!

تسمرت عيناه الذاهلتين في ظهر خروف هزيل من خرفانه وقال بصوت مكتوم :

– جيهان مريضة منذ عدة أيام وأنا لا أعلم بذلك!!

(٢)

هاهو يوم كئيب يمر ببطء ويليه يوم أشد كآبة منه. قفر موحش رغم اخضرار مروجه وزقزقة عصافيره وبشاشة فجره... ربما فقدت الأعين لذاتها فغدا كل سحر لديها تلقائياً لا يرسم نفسه على عدساتها المتورمة. يوم حزين لم تأت فيه جيهان إلى المراعي، حتى الغنم الشائقة للعشب الجبلي الأخضر لم تدس أقدامها عتبة باب الزريبة في ذلك اليوم.

هاهو راع آخر يقبع على الصخرة قرب فالح ويضع راحته على كتف صديقه المحتضن لركبته، والناظر إلى زاوية ضيقة في المدى البعيد ويقول له بإشفاق:

- كن شجاعاً كما عهدناك فلا جدوى للحزن.

ويجيب عليه بكلمات مختنقة قائلاً:

- لقد ماتت وتركتني لهذا الجبل الأصم أكابد الأحزان.

- لست الوحيد الذي تفارقه حبيبته.

حين ذلك انفجر باكياً وأخذ يصرخ:

- كفى يا هذا.. أنتم قساة ظالمون وقد كنتم تتمنون لها الموت لأنها كانت ترعى معي ولا تلتفت إليكم أيها الجبناء...

- ألا تذكر يا فالح يوم سحبت الرعاة بعيداً عنكما وأنتما معاً تتحدثان عند الهضبة؟

- اغفر لي يا رفيق ما وصمتك به، فأنا الآن مسلوب الوعي كالمعتوه...

ويتوسل رفيق إليه أن يريح جسده تحت ظل الشجرة القريبة منهما لكنه يصطدم بقوله:

- لقد امتلأت أوعية جسدي بالآلام و الأوجاع ولم يعد هناك ثمة فراغ لحرارة الشمس أو لبرودة الرياح.

(٣)

في المساء يسدل الماضي ستائره العتيقة على ألبابنا المحمومة بالأفكار المريبة. الصفح، الصفح أيتها المرحومة التي خلّف فراقها لقلبي المتعب ويله وظلمه... وراء هذه الستارة اليوم المشؤوم الذي أسدى فيه الوشاة لأبيك خبر لقائنا في التل، هاهي الأغنام كانت راتعة قربه، وشاهدة على حديثنا في ذلك اليوم. هيّا، اسألوها عن أفاعيلنا أو أقاويلنا هناك، حتى عن تفكيرنا أو حبنا العفيف. رغم ذلك ابتعدت عنك مكرهاً وراضياً في نفس الوقت. وذلك عندما رأيتك في اليوم التالي مطأطئة ومشيحة وجهك عني ولا تنبسين بكلمة واحدة. رأيت الدمعتين اللتين سقطتا من عينيك كأنهما لؤلؤتان

سائلتان صهرتهما أفران قلبك المتوهجة. لا تريدين أن نستظل تحت ظل شجرة العنبرود المشتاقة إلى جسدينا النحيلين وضحكتينا العذبتين وتعليقاتنا الساخنة عن أتفه الأشياء!!

مالك تنظرين إلى وجهي كما لو أصبت ذنباً لا تستطيع بحار الدنيا غسله؟ هناك كلام تيبس في شفتيك الجافتين. شيء ما تريدين قوله، لكنك واقفة كاللافتة على الطريق العام، ولا تتكلمين عما أصابك.. فهمت الآن. ربما هذه الخطوط الحمراوية اللون التي تظهر لأول مرة على ظاهر معصمك الأبيض تبرر هذا الصمت المفجع. إذن لقد نلت علقة مؤلمة من يد أبيك الغشوم. سامحيني. لأنني السبب في كل ما حصل لك، ثم ادعي لي بالشفاء العاجل من جنون البين.

هاأنذا في ذلك اليوم العصيب تحت شجرة العنبرود، وحيداً أتلوى كالمدوغ. لا حاجة لي بالبكاء، فالأمر أكبر من أن أبكي كالثكلى... كنت أحس بمقدار ألم الشجرة وغرابتها لعدم وجودك معي يا جيهان، وفجأة التفت لأراك قادمة بأغنامك وعلى شفتيك سرٌ حنون يبحث عن قلبٍ معشب

بالأمان والهدوء. ونحكي عن الوشاة الحقراء الذين دسوا أنوفهم في قضيتنا العادلة. أقول لك فجأة :

– ربما كان فراقنا ضرورياً وبالذات هذه الفترة..

لكنك تجيبين ممتعضة :

– هذه أنانية منك يا فالح ولن يفرقنا أحدٌ حتى أبي إلا إذا كان الموت فهو قدر الله.

وأرد عليك بمرارة :

– أنا أخاف عليك يا جيهان من المجهول.

وتجيبين قائلة بتهكم :

– سأعطيك قلبي كي تتوارى فيه.

– آه...

انتبه فالح إلى نفسه، انتزعته هذه الآهة المفاجئة من ذكراه المؤسية، فهمس لروحه وقد بدأ النوم يدغدغ عينيه:

"ربما أفيق من نومي في الصباح الباكر سأذهب إلى مكان لقائنا الأخير، لقد افتقدت شجرة العنبرود كثيراً وعليَّ أن أقرأ سورة يس على روح جيهان هناك".

(٤)

أثناء السبات ذهبت روح فالح على حين غـرة إلى المقـبرة وطرقت قبر شيخ مات في سن الثمانين وسألت روحه قائلةً :

– أين مكان روح جيهان بنت مالك؟؟

وبدورها تسأل روح الشيخ روح فالح مستفسرةً :

– متى فارقت روحها جسدها؟

– منذ يومين فقط.

فتقول الأخرى بأسف :

– هذه أرواح ما قبل ثلاثمائة سنة..

وهكذا تطرق قبراً ثانياً وثالثا ورابعا وخامسا و... و.... حتى تصل إلى أرواح ما قبل عشرات السنين وتستمر بالبحث الدؤوب حتى تبلغ إلى روح ما قبل شهرين. وتطرق قبرها الصغير فتجدها لطفل مات وعمره أربعة أعوام فتسألها قائلة:

– أيتها الروح الصغيرة، أين مكان روح جيهان؟؟

فتجيب روح الطفل ببراءة الدنيا قائلة :

- لعلها في القبر المجاور فهو آخر قبر في هذه المقبرة!!

وتطرق روح فالح القبر فترى روح حبيبته قابعة فيه بسكون وتحمل نفس صورتها الدنيوية لكنها مصغرة جداً وصافية اللون عدا نقطة سوداء على جبينها تشبه الشامة.

- السلام والرحمة عليك يا روح جيهان!!

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.. من أنت أيتها الروح الزائرة؟؟

- ألا تعرفينني؟؟ أنا روح فالح الحزينة!!

- ما جاء بك أيتها الروح؟ أما افترقنا في الدنيا؟؟

- وهل يموت الحب بعد خروج الروح؟؟

- إذا مات القلب، مات الحب ولا يموت القلب إلا بصعود الروح!!

- هل يعني هذا أننا لن نلتقي ثانية؟؟

- إذا شاء الله تلتقي الأرواح الصالحة والصادقة في الجنة!!

- اصفحي عني فأنا سبب معاناتك في الدنيا ومازلت أبكي من أجلك!!

- لقد سامحتك قبل صعودي ببضع ثوان، لذا لا تبك لأن البكاء يعذبني هنا.

- مازلت أحبك يا روح جيهان!!

- ستقعين في حب روح أخرى عما قريب.

- معاذ الله أن أحب سواك.

- تمتعي بحياتك يا روح فالح لأن الروح الجديدة تشبه روحي في كل شيء..

- ألا تغارين منها؟؟

- لِمَ أغار منها!! وهي تشبه روحي؟ كما أننا هنا نتخلى عن صفات الدنيا!!

- هل يعد هذا من الغيب؟؟

- لا.. لقد زارتني روح حبيبتك القادمة وأخبرتني أنها مغرمة بك..

- هل تشعرين بالضجر في هذه الحفرة الضيقة؟؟

- لا.. بل شعوري كشعورٍ النائم عندما يحلم بالرؤيا أياً كانت سعيدة أو مخيفة..

- هل هناك ما تودين قوله قبل رجوعي؟؟ فأنا أشعر بفالح يتحرك ولا يستطيع الإستيقاظ من دوني...

- لا شيء يا روح حبيبي الدنيوي.. أوه ،هناك شيء واحد.

- ما هو يا روح الحبيبة؟؟

- ألا ترين هذه الشامة السوداء التي على جبيني؟؟

- نعم أراها تحترق بوضوح!!

- هي خاتم صديقتي فاطمة الذي استعرته منها في إحدى الحفلات ثم لم أعده إليها بعد ذلك..

- وأين يكون هذا الخاتم؟؟ وما لونه؟؟

- خاتم أبيض لـه فـص مـن العقيـق الأحمـر في حقيبتـي الموصدة إلى جواره صورة صاحبك فالح..

- يا إلهي!! إنه يتحـرك عـلى سريـره.. بـإذن الله أعـود إلى جسده..

وفي غرة الصباح ساق فالح قطيعه إلى المراعي، وما لبثت سلوى أن أتـت بقطيعهـا، ودهـشت حينما شـاهدت أغنامـه سارحة في الشِّعب، وهو مستند تحت تجويف صخري مظلـل، ويأكل شرائح مستديرة من فطائر العدس، ويمص من زمزمية صغيرة لبناً صافٍ طرياً.. بدا لها أنه قد أمضى الليل وقطيعـه في الجبل، ولعله أحيا المجيء باكراً، وهذا في حـد ذاتـه أمـر شـاذ الحدوث.. وكأنما تنبه فـالح للعجـب الـذي خـامر صـاحبته، فهب قائماً وألقى إليها بما طرأ في ليلتـه الماضـية، ولم يغـب عـن إدراكه أن كل قول تنطق به سلوى، قـد نطقـت بـه جيهـان ذات يوم.. وكـأن الأخـيرة لازالـت حيّـة.. وهكـــذا صـارا يهذيان هنا وهناك في أرجاء الجبل إلى قبل الغروب.. ثـم عـادا إلى القرية.

(٥)

بحثت سلوى عن المفتاح حتى وجدته تحت سرير جيهان معلقاً بميدالية صفراء جميلة ثم عالجت القفل حتى فتحته بسهولة وأخذت تفتش عن الخاتم في الحقيبة الجلدية السوداء.. وهمست بصوت خافت، متسائلةً:

- أين الخاتم والصورة؟؟ أين يا ترى؟؟

ارتسمت علامات الدهشة على ملامحها وهي تنظر الخاتم الأبيض في إحدى زوايا الحقيبة ومع هذا ظلت تبحث عن صورة فالح حتى وجدتها أخيراً في الزاوية الأخرى للحقيبة وقالت بعبارة حزينة: رحمك الله يا جيهان لقد كنت تحبين فالحاً في السر.

جعلت تفحص الصورة بنظراتها الدقيقة وتذكرت ما دار من حوار بينها وبين فالح في المراعي.. ما أفظع لقاءات الأرواح خلف أستار الليل المظلم. ما قاله فالح عن تلك الروح الجديدة التي سيقع في حبها أصبح شغلها الشاغل

وذلك لأن روحها زارت روح أختها جيهان في اليوم السابق.. لكنها أسرت ذلك في نفسها ولم تخبر فالحا عن هذا الأمر.. ومضت توسوس لنفسها قائلة:

- لعل هناك روحاً أخرى غير روحي زارت روح جيهان.. ثم تعود وتنفي ذلك :

- لكن لا يعقل هذا لأن الروح الزائرة تشبه روح أختي جيهان ولا شك أنها روحي وأنا من سوف يقع فالح في حبها...

وترددت قليلا قبل أن تقرر أخيراً إرجاع الصورة إلى فالح وكذلك إعادة خاتم فاطمة إليها وكتمان الأمر على والديها..

ولأن روحها كانت تشبه روح جيهان فقد بدأ حب فالح يتسلل رويداً رويداً إلى قلبها مع مرور الأيام.

(٦)

ذات يوم بش وجه الوادي وشمر الفجر ذراعيه لينبلج صبح جديد.. كانت الريح تصهل من بعيد كما لو جاءها المخاض، أما الغيم فقد ابتلع ضوء الشمس ونشر لونه الداكن على قرية المنار.

كانا في شعبٍ آمن، قابعين تفصل بينهما ثلاثة أمتار بالتمام.. بعيدين عن شجرة العنبرود وعن الرعاة الوشاة.. أما أغنامها فقد بدت متذمرة من طقس ذلك اليوم. أفلت لسانه ليقول لها بجرأة:

- هذا اليوم الممطر يذكرني بها، لقد كان ذلك اليوم مطيراً.

- عما تتحدث؟؟ إنك غامض جداً.

- هل تدرين ما تقول تلك العنبرودة القريبة من التل؟؟

- الشجر لا يتكلم.

- بل يقول إنك أشبه الناس بأختك جيهان!!

- الشجرة مخطئة لأنني لا أشبه إلا نفسي..

- أبونا آدم هو الذي أخطأ حين أكل منها، أما هي فتموت واقفة..

- أنا أعلم أنك كنت تحب جيهان وتأكدت أكثر يوم وجدت الصورة..

- لا أنكر ذلك ولقد تمنيت لو أنني مت قبلها بأعوام..

أجابت سلوى بغيرة واضحة:

- هذا الكلام غير لائق وأرجوك أن تحتفظ به لنفسك فقط..

- أعماقي تزفر حبي القديم وهذا يريحني قليلاً.

- لكنك تتمرد على قوانين الريف النزيهة.

- إنه تمرد نزيه أيضاً ولا يمس المجتمع بسوء..

- الشرف والعرض كالزجاج معرضان للكسر في أية لحظة..

- والحب الريفي كالضوء يمرق دون أن يخدش أي منهما..

- أنت شيطان المنار يا فالح.

- لقب جميل قد لا أستحقه من جميلة مثلك.

قالت كأنها لم تسمع كلماته الأخيرة :

- المطر. المطر.. أنظر إلى هناك إنه كالأمواج في طريقه إلينا.

- رحمها الله هكذا قالت لي ذات يوم.. أجاب فالح بشرود..

وأسرعت سلوى تنادي قطيعها للعودة.. كانت مضطربة بعض الشيء وخائفة. فقد ابتسم لها فالح وتحرشت بها عيناه، لذلك لم تجرؤ على الالتفات إلى الوراء حتى توارت..

مأرب ٢٠٠٢م

نبوءة العرّاف

وضعتني أمي في مخاض ليس بالعسير أو اليسير، كان يلف جسدي غشاء هلامي شفاف يشبه الزجاج.. غير أنه ليس بالصلب. قد لا يصدق أحد إذا قلت أنني وقبل أن أفارق هذا الغشاء الهلامي سمعت وفهمت ما دار بين أمي والقابلة العجوز من حوار لكن عينيَّ هامدتان لا أرى بهما أي شيء عدا الظلام المطبق، وما من حاسة في جسدي تعمل غير سمعي وفمي الصارخ وجزء من دماغي الصغير الرخو.

في البدء شعرت بجسدي يقع على حافة شيء خشن كإسفنج بالٍ أو صوف ملبد بأوساخ وقش، وكان لوقوعي هذا خيال ألم لم أعد أذكر مدى تأثيره بي، وقتئذ تناهى إلى سمعي إيقاع رخيم لتنهيدة ارتياح أقلعت من أعماق أمي الخائرة القوى، تلتها زغرودة أثارت فزعي أطلقها لسان جلف

لامرأة أظنها القابلة، كيف لي أن أميز الزغرودة لولا أنها جاءت إليَّ سريعاً ومزقت الغشاء، وهي تصلي على النبي كثيراً وتقول بصوت كذلك الصوت الشاحب الذي صاحب زغرودتها:

- بسم الله، ما شاء الله، أعيذك بالله من شياطين الجن والإنس ومن الوسواس الخناس.

وشعرت برعونة كفيها وهي تتناولني، وبذبحات باطن راحتيها المشققتين القديمتين، وتعقب رانية إلى أمي في استبشار:

- المواليد الذين يولدون في أغشية سعداء غالباً، لأن تلك الأغشية من صنع الملائكة الكرام. فهمت أمي سر مجاملة القابلة، فأجابت ملوِّحةً بمنشة الذباب في الهواء:

- الحمد لله على كل حال.. الآن بوسعك قطع حبله السري، فلم يعد بحاجة إليه..

حالاً تناولت القابلة سكيناً مثلومة وراحت تحز الحبل السري على طريقتها، فبكيت أثناء الحز بمرارة، وأهويت بيدي

على عارض القابلة بلطمة خفيفة بدت كالمقصودة والتي لا تأتي إلا للانتقام أو عند الغضب، ورغم ذهول أمي والقابلة إلا أن الأخرى تصنعت الابتسام وعدم الاكتراث، وفي باطنها خبث لا ينطفئ..

بعد قليل عدت إلى طبيعتي ساكناً، ولم ألبث أن أحسست بنسوة جئن من القرية، علت أصواتهن في المكان، وهن يهنئن أمي على سلامتها، ثم يطلقن البخور، ويحتسين قهوة الزنجبيل المعدة لهذه المناسبة.. ودار بينهن كلام كثير. ما أذكره تماماً هو أن تلك النساء فوجئن بي أضحك ببراءة كطفل في الخامسة، وحدث ذلك عندما زعمت إحداهن أن وليدها حال ولادته لفت إلى رحمها لفتة غير لائقة.. رمقن وجهي الضاحك مبهوتات وتغامزن بدهشة فاضحة، فغارت أمي عليَّ وخافت من بعض العيون، فأمرت القابلة بغضب أن تلفني بالخرق، وتحكم عليَّ القماط وتسير بي إلى هندولي العاجي في الغرفة المجاورة.. بعد ذلك اليوم تيقنت أمي أني سأصبح إما زعيماً أو وزيراً أو مخترعا، فصارت تغلق عليَّ منافذ الضوء والهواء لئلا يراني أحد، وتخشى عليَّ من تقلبات الفصول ومما يحوط بي من

الكائنات أو الجماد.. والذي أضرى هوسها أكثر هو ذلك العراف الذي رمته إلى قريتنا الأقدار.. رغبت أمي أن يضع كتيب (الحصن الحصين) في جوف المنزل لنتبارك به، ونحتمي بآياته من الأسحار.. ثم يذهب إلى حاله..لكنه اقترب من هندولي محملقاً عينيه كما لو عثر على كنز سبئي ثمين، فسارعت أمي وطوقت الهندول بذراعيها كاللبؤة المفترسة، موحية إليه أن لا يدنو أكثر لأنها ستمزقه إرباً ولن ترحمه أبداً.. انحسر العراف مرتعشاً، وعبثا سأل أمي بصوت لين عما حدث بعد الولادة. فقالت بارتياب:

- جاء في عشاء ، وأهوى يده في وجه القابلة وضحك من حديث النساء..

جعل العراف يتفرس في كتاب بحوزته، له أوراق تالفة مهترئة، وسرعان ما تلون كالحرباء، لكن سيماه كانت متهللة، وشفتاه منفرجتين بابتسامة بلهاء حيث قال بانفعال صريح:

- لن أقول شيئاً حتى أحصل على جائزة جزاء هذه النبوءة الجميلة، نبوءة تشترى بالذهب..

ورمق بخبث إلى عقد الذهب الذي يزيّن جيد أمي، فمدت المسكينة يدها إلى العقد وأعطته إياه، وهي تستعجله صارخة:

- قل يا هذا، وإياك أن تكذب لتكسب العقد.

أشاح العراف عن نفسه هذا الإدعاء بيمين مغلظة وانبرى قائلاً بنبرات واثقة:

- في أعماق الفتى كنز لا يقدر بثمن، لأنه جاء مغلفاً بغشاء، ويكون في يده سر قوته ونجاحه، لأنه لطش القابلة، وسيكون جذاباً لدى النساء لأنه ضحك منهن..

وتنبأ بأشياء كثيرة منها العناء الذي يلوك حاضراً أيامي في بداية مشوار إبداعي. والشيء الوحيد الذي لم تفهمه أمي هو كنز أعماقي، وكأنها فكرت يوما في أن تبقر بطني عساها تجد جنيهات ذهبية أو لآلئ أو معادن نفيسة بين أماصيري.. ولا زالت هذه الفكرة تراودها إلى أن عرفت مؤخراً أنها كانت على خطأ، وذلك حين سمعت نبرات صوتي تنبع بانسياب هادئ

من المذياع صباحاً، بأول قصيدة شعر..والآن هاأنذا بين بحر وبحر، أسبح ببطء وحذر، أنخفض بهذه الموجة وارتفع بتلك.. والنبوءة لازالت هي الأخرى تجري إلى غير مستقر وقد بلغني أن صاحبها العراف قد مات، فهل يا ترى هل ستظل هي حية أم لا؟؟

صنعاء ٢٠٠٣م

العناكب والغبار

(١)

قنبلة صوتية انفجرت، لكنها متوقعة، ومنذ أن أخلى الملفات من القسم ظهيرة أمس وهو يتنبأ بانفجار مريع كهذا.. لأنه أخلاها بطريقة غير مشروعة.. غير أنه تردد لمرات عديدة في تصديق كلام الساعي. لقد كان جاداً في قوله، ونبرات صوته لاهثة رنانة لا تنم عن زيف أو افتراء، كما ليس لإبريل شهر الكذب الأبيض أية علاقة بما نطق به الفتى لاسيما أنه لا زال غرّاً حديث الوظيفة.. ومدة أسبوع غير كافية حتى يتقن الخبث الذي يشتهر به زملاؤه في القسم، وقف رفيق على أحد منعطفات السلم المؤدي إلى الطابق الثالث، صار يرى لافتة مكتب المدير العام ويرجف بهلع.. أمسك بخشب السلم المنظَّم، والممتد لصق حافة الدرابزين الطويلة نحو الأعلى..

وراح يهرش بإصبعه قرن رأسه في غمة فاضحة، أطلق تنهيدة اشتعلت كالنار خارج فمه وهمس زافراً بأرق: يا له من شؤم أن أجد نفسي أمام المدير العام وجهاً لوجه.. يا رب أستر.. يا رب..

ثم سبح في أخيلته المتلاطمة بلا انتهاء وتأوه بحزن.. لأنه يدرك أن المدير العام لا يستدعي أحداً إلى مكتبه لكي يكافئه، بل ليلحق به ضرراً فادحاً، فلم يسبق أن خرج موظف من عنده بسلام، فإما يخصم من علاوته، وإما يحرمه من ترقية وإما يقذفه إلى فرع نائٍ من فروع الشركة، وإما يُصيبه بأي عقاب تأديبي لا يقل قسوة عما مضى.. ولكنه قد يحظى بعفو في حالات معتادة.. منها - على سبيل المثال - متى رن الهاتف شافعاً له، أو متى جاءت رسالة مختومة أو موقعة من رجل مكدسة جثته المفلطحة على مكتب فخم، مؤمن بابه بحارس فظ يتربص بالزوار، ويبدو كخازن الجحيم لا يبسم ثغره إلا فيما ندر.. الكل يعلم أنه - أي رفيق - يكد كالحمار في أرشيف القسم فيظل طيلة يومه يؤرشف الملفات وحيداً، أما زميلاه

ناصر وسعد يتسكعان كل يوم في الإدارات الأخرى يغازلان الموظفات والمعاملات على الوظائف حتى ينتهي الدوام.. ورغم أنه الأكثر حظاً في التعب والعمل إلا أنهم يتساوون في الراتب والمكافآت الشهرية، وهو من ينقب بين الملفات القديمة عندما يتلقى أمراً من مديره بالعودة إلى ملف وظيفي لسبب ما.. فيكتسي بالغبار وتدمع عيناه، وكثيراً ما تصعد العناكب أطرافه وتختبئ البعض منها في أعطاف بدلته الرمادية، وعادة ما ترافقه العناكب إلى المنزل خلف عودته آخر اليوم.. وقد لدغه عقرب أحد الأيام فتألم كثيراً، ولكن مجرد تفكيره بأفعى تثب عليه من بين الملفات هاجس يؤرقه ويبعث رعبه.. فهو يكره الزواحف عامة والأفاعي خاصة ولا يتحمل رؤيتها على شاشة التلفاز.. في الفترة الراهنة ناله إجهاد وعناء بعد إعلان الشركة عن وظائف شاغرة تصل إلى الخمسين لأصناف شتى من المؤهلين وبشروط صارمة.. ليست هذه المشكلة بحد ذاتها، بل إن أعداداً لا معقولة من طالبي التوظيف أدرجوا ملفاتهم في القسم، وينتظرون للجنة اختيار الأهلية والكفاءة.. وكان وقتها يجري حملة شعواء على الملفات التالفة ويستبدلها

بأخرى جديدة وينظف الأرفف ويرقّمها ويرتبها بدقة.. وكادت العناكب أن تنقرض وكاد الغبار أن يفنى.. لم يتبق سوى رف واحد طويل مكتظ بالملفات القديمة لا زال يحتفظ بالعناكب والغبار.. اضطره أمر مدير قسم التوظيف أن ينقب عن مقر لهذه الملفات الجديدة الجمة.. لكن كيف له أن يجد لها مكاناً، ولم يعد هناك موضع بين الأرفف القديمة المتزاحمة سوى ما يضع عليه قدميه، وفراغ صغير فوق رأسه يمتد عمودياً إلى السقف، وليس بوسع أي كائن أن يحتفظ بأنفاسه فيه لبضع دقائق دون اختناق.. إذ أن الملفات قد سدت النوافذ ومداخل الهواء.. ولولا مصباح النيون الطويل لانقطع الضوء أيضاً ولسادت العتمة..

(٢)

في السابق مد يده بورقة نصفها مكتوب بخطه، وخاطب مدير التوظيف في رجاء:

- بعد إذنك يا أستاذ!! توقيعك..

- بخصوص ماذا؟؟ سأل مدير التوظيف مندهشاً...

- بخصوص طلب مخزن إضافي للملفات من مدير الشركة..

خطف المدير النظارة من جيب معطفه وأعلاها على وجهه.. ثم استرق إلى السطور نظرات عميقة لكنها كسولة.. وسرعان ما زحلق الورقة إليه، ونطق بلا اهتمام:

- خذ يا رفيق، أما سبق وأن أمرتك أن تتصرف، وقد التزم زميلك ناصر بأمر الملفات الفائضة في الأرشيف..

- هل صدَّقت هرطقته يا أستاذ؟؟ قُل لي ماذا عمل منذ التزامه!! ألا ترى خصلاته المنفوشة كل صباح بلا تسريح أو ترتيب..

ضحك مدير القسم بلا وقار وأجاب :

- أعلم أنه لا يهتم بمظهره الخارجي كلياً، إن مشاغله كثيرة..

- أنا لا أمزح يا سيدي. وليس في كلامي ما يضحك..

وهكذا ظل رفيق يلح عليه بشأن الملفات مؤكداً أهمية المخزن. حتى انفجر المدير صائحاً بغضب:

- لا تكن مثل (الرازم)(*).. ضع الملفات بين ثيابك أو احرقها أو انقلها إلى منزلك أو ارمها حيث شئت..

انسل رفيق من مكتب مدير التوظيف حنقاً، وفي السكرتارية قابلته السكرتيرة هند بضحكتها الطائشة وابتسامتها الغنجاء، لقد صارت لينة وودودة معه، وأصبحت ميّالة إليه أكثر من ذي قبل.. فيحسده الموظفون على هند لاسيما ناصر وسعد.. كم تبدو آسرة وهي تقلب عينيها بحركة

(*) الرازم : كابوس مخيف يطارد المدمنين على مضغ القات، ولا سيما إذا انقطعوا فجأة عن مضغه.

تنويمية في وجهه.. نظرات ولهى كهذه من عينيّ هند ساحرة مثلها، وبوسعها تخدير الأجساد وتمويتها وتجميدها.. وترتدي هند على طريقة السكرتيرات المحافظات إزاراً مخططاً بخطوط نميمة بيضاء وزرقاء.. ورغم سواده الغالب إلا أنه بنسق خياطته وانضغاطه عند وسط جسدها يثير في النفس رغبة غير محمودة.. ويحتضن رأسها حجاب ناصع البياض، بين أحشائه يلم ضفائرها المتخذة شكل عنقود العنب في قفا الرأس.. وفي مقدمته فوق الجبين تحررت بعض الدرايا ونامت بدلال.. بادرته هند قائلة بلكنة صنعانية :

- اسمع يا حبيب أُمك، قم بنقل الملفات القديمة إلى غرفة نومك، ولا من شاف ولا من دري..

- تهزئين بي يا هند. أليس كذلك؟؟

تأملت بشرته القمحية، وساءها امتعاضه، فعدلت لتقول برقة :

- بل جادة، ونقل الملفات هو الحل، وليس بالضبط إلى غرفة نومك،وإنما أردت التنويه إلى منزلك.

- هذا صحيح، لكن الكمية ضخمة وأحتاج إلى سيارة شحن حكومية،وتصريح موقع من المدير العام أو الوزير..

- سيارة الشحن على فناء الشركة، أما التصريح فبوسعك انتحال توقيع المدير العام، فهو أيسر.

غادرها رفيق وهي تتحدث، هابطاً إلى الطابق الأرضي باتجاه الأرشيف، صمم أخيراً أن ينقل الملفات القديمة المتبقية إلى منزله مهما كلفه الثمن، ذلك الرف الطويل الذي تسكنه العناكب ويملأه الغبار هو حجر العثرة. وينبغي أن تحل الملفات الجديدة محله كحل مؤقت.. هكذا قال رفيق لنفسه.. لم يلبث أن استدعى العمال، فأخلوا الأرشيف خلال ربع ساعة.. وأبرز لسائق سيارة الشحن تصريح نقل مزور، فلم يمانع السائق ولم يرتب من التوقيع الشبيه بتوقيع مدير عام الشركة.. وأخذ رفيق الملفات إلى منزله، فحشر الجزء الأكبر في الصالة والأقل في غرفة نومه.. ونام في تلك الليلة مع العناكب والغبار.

(٣)

أفاق رفيق من غيبوبته حين ارتطم به جسم سريع، رجلٌ يمسك ملفاً قشيباً يركض على السلالم، وكأن الشياطين تسكن رأسه، أو لا زالت تطارده لتسكنه.. سمع رفيق ضجة كبيرة تقترب فرأى المدير والموظفين الصغار ومدراء الأقسام يخرجون من المكاتب ويتكاثفون حوله متنمرين. مرت موظفة يعرفها بالملامح فقط، فحدجته بنظرة قاسية من عين محمرة.. وأتت السكرتيرة هند ووقفت قبالته بحزن.. سقطت ركبتا رفيق على الأرض لا إرادياً، وجثا منكسراً مطرقاً يتأمل نملة تركض بعنف على رخام السلم.. رفع بصره إلى أجساد كالأجداث ساكنة.. الوحيد الذي رآه يتحرك هو مدير التحقيقات، وبين أنامله ورقة صفراء تسوء الناظرين تحمل قرار فصله عن العمل وإحالته إلى التحقيق.. تحرك أيضاً المدير المالي ومد إليه برزمة نقدية صغيرة نظير خدمته السابقة، وتحركت كذلك هند لتعطيه وردة ذابلة كئيبة تشبهها تماماً.. وقبل أن يمسكها صدرت دوشة من الأسفل، وإذا بمدير عام

الشركة يصرخ في الموظفين ويأمرهم بالعودة إلى المكاتب حالاً. ويعلن عن زيارة جناب الوزير المفاجئة لإدارة التوظيف ليرى الأرشيف والملفات الجديدة وما أنجزته لجنة الكفاءة والأهلية..

صنعاء ٢٠٠٤م

الحُب المستور

كلاهما يبصق في وجه الآخر كلما رآه.. هو يكرهها بشدة وهي تكرهه أشد.. أكثر من مرة يذهب إلى البقال الطيب "حسين السعواني" لشراء حاجيات المنزل، فيرى بنت حيِّه تبتاع الخضار، فيرتد إلى الوراء إلى أن تذهب ومن ثم يعود لشراء أغراضه، عداوة متأصلة لا سبب لها.. وكل سكان الحي يثرثرون عن ذلك ويرقبون ذلك النزوع العجيب بكل أشكاله وأبعاده... لم يكن عجبهم حذلقة فارغة كما يعتقد الغريب عن الحي... فمن يرى أحمد وحبيب، والصداقة الوثيقة العرى التي تصلهما ببعضهما لظن أن عائشة وتميم سيرتبطان لا محالة ولن يفلت أحدهما من الآخر، وهذا بالفعل ما كان يخطط له الأبوان الصديقان ولكن خبر العداوة بين تميم وعائشة جعلهما يغتمان ويأسفان لذلك.. كان السؤال الملح عليهما: ما هو سر

ذلك التنافر؟.. سن المراهقة خطير والداخل فيه ربما يكره كل شيء أو يحب كل شيء..

بعد تمهيد طويل انقض أحمد سائلاً ولده تميم:

- أسمع أنك تكره عائشة إلى درجة النفور.. أهذا صحيح؟؟

يجيب عليه بحدة:

- شعور لا أستطيع مقاومته يا أبي ولا أعلم سببه!!

- أبوها أعز مخلوق لديَّ وأود توثيق الصلة أكثر باقترانكما.

ضحك تميم ضحكة طائشة وقال باستبعاد:

- المريخ أقرب إليَّ من عائشة..

حاول حبيب هو الآخر ترغيب عائشة بالإطراء على صديقه أحمد وولده تميم، ولفت انتباهه تقزز ملامح ابنته حينما ذكر اسم تميم على لسانه. فقال لها معاتباً:

- ألم يعجبك كلامي؟؟ وأضاف مواصلاً حديثه: "بلغني أنك تكرهين تميماً وتبصقين في وجهه"..

ردت على أبيها بثبات :

- تميم سيء الأخلاق وأناني ولا يملك خصلة حسنة.

- أنا وأبو تميم نريدكما عروسين وقد تعاهدنا على ذلك منذ أن كنتما صغيرين تلعبان سوياً..

عندها نفرت في وجهه باكية وقالت بعناد :

- سوف أقتل روحي إذا تم ذلك..

وتقابل أحمد وحبيب وشكا كل منهما للآخر ما حدث واتفقا على زيارة طبيب نفساني متخصص.. عادا من لدى الطبيب بخطة لا يعلمان بما ستؤول إليه بنودها الخطيرة.. كانا فرحين لأن الطبيب أنعش الأمل في قلبيهما بقوله :

- اكتشف كبار علماء النفس أن الكراهية الشديدة انعكاس لحب مستور لا تكشف عنه إلا الصدمة وهذه حالة شاذة الحدوث عند المراهقين ومن علاماتها الكراهية دون أي سبب..

رسم لها الطبيب الخطة بحذافيرها وقال إنها العلاج الوحيد لامتصاص الكراهية ولكنها ليست أكيدة النجاح في بعض الحالات.

جاء حبيب في اليوم التالي يلهث إلى منزله وفي عينيه سائل يشبه الدموع وقال لزوجته بصوت أشبه ما يكون بالبكاء :

– تميم ابن صديقي أحمد سقط من أعلى العمارة وتهشمت جمجمته على الأرض واختلط عظمه مع لحمه..

بكت زوجته بحرارة وتملّكها حزن جاد، في حين التفت إلى ابنته قائلاً بتأثر وتأنيب :

– هيا بنا يا عائشة إلى عزاء عائلة أحمد ويمكنك الآن أن ترتاحي بعد موت عدوك تميم..

لاحظ حبيب عقب جملته الأخيرة أن وجه عائشة بدأ يحمرّ، بينما أضحت عيناها على وشك الانهيار.. أرادت أن تقاوم البكاء لكنها لم تستطع ذلك.. فما تملّكها من إشفاق في تلك اللحظة كان أعظم من أن يقاوم.. أخيراً استسلمت

وبكت وخرجت مع أبيها لأول مرة إلى منزل أبي تميم للعزاء وهي على تلك الحالة..

هناك دخلت مع والديها على عائلة تميم فرأته في صدر المكان منخرطاً في البكاء.. عند ذلك ضحكت وهي تبكي وكذلك تميم الذي قال وفي عينيه حيوية الموقف:

- ها هي سليمة لم تحترق بالغاز في المطبخ ولم تنفجر جثتها كما زعمتم...

صنعاء ٢٠٠٢م

حكاية الزعيم عرفج

استتب الوضع بعد صرخة مدوية أطلقها ضابط المخفر المناوب ، فبهت الجميع، ليس من الصرخة ولكن لفرط تحول هذا الشرطي المرسوم كالطيف على كرسيه العاجي حتى أن الرائي له قد يساوره الظن أنه لا يحوي حنجرة صوتية ولا أوتاراً ولا حبالاً خلا عظام كأعواد الثقاب. إذن من أين صدر ذلك الصوت الجبار؟ وإنه ليبدو كصائم أبدي عن المأكل ، ولكن رغم كل شيء وثب كالديك البلدي وراح يطوِّح بسبابته مشيراً إلى وجوه وأنوف أفراد العصابتين المدماة وينذر بيوم حامٍ على رأس المعتدي ، انتظر سماع أقوال المتشاجرين كل عصابة على حدة ومهما يكن فهناك شهود عيان من المارة وأصحاب الحوانيت وأقوالهم هي المعتمدة. وجاءت نتيجة

الحصر في الإصابات والأدوات المستخدمة في الجناية.. ستة أنوف مكسورة كسراً بائناً، وثلاث عيون مفقوءة، وأربع آذان مجدوعة من المنبت كآذان الكلاب وعمود فقري مكسور، أما الكسور في الأضلع والأذرع والسيقان والفكشات والكدمات فلم تدخل في الحصر لكثرتها، وهذه الإحصائية المقتضبة لعصابة قريش وحدها، أما عصابة الجوارح فقد لاقت ضعف ذلك. ونقل جُل - إن لم نقل كُل - عناصرها إلى المستشفيات، كان الوقت ظهرا والهجوم مباغتاً والجوارح المغرر بهم في اجتماع هام ولم يوضح شيء ذو بال، حتى السبب في النكبة - وهو الأهم لدى الشرطة - صار لغزاً معقداً يصعب حله، وقد زعم أعمى يرتدي نظارة قاتمة أن دحداحاً (زعيم عصابة الجوارح) عاكس فتاة في الشارع تمشي بإغراء فقذفها بحصاة صغيرة وقعت على موضع في جسدها لا يطرقه غير الزوج...

وصاح الضابط على جماعة الحضور بقساوة:

- ما هذا الهراء بالله؟ أعمى ذو نظارة سوداء، حصاة صغيرة، وموضع.. أستغفر الله!!

— هيه ، هذي شهادتي ولا يفرك مني ما ترى فقد قدّر الله أن أبصر بقلبي..

تعقدت الأمور أكثر ، وهاهو خيط لم يوصل إلى شيء ذي نفع ، ونودي بشاهد آخر فجاء رجل أصم سدت أذناه بعطب ثقيل وبالكاد عرف ما يراد منه ليس بالكلام ولكن بالإيماء، فأدلى بشهادته مؤكداً أنه كان في إحدى حارات قريش وحينها سمع نواحاً واستغاثة لنفس الفتاة المغربية وقد بدت مستنجدة بأولاد حارتها فهبوا عن بكرة أبيهم إلى حارة الجوارح وحدث ما حدث.

مما زاد المعاناة أن بانت الفتاة محبوبة الزعيم الفحل عرفج.

صرخ الضابط في وجه الشاهد الأصم بحيرة :

— كيف سمعت؟ وأنت أصم وفي أذنيك عطب؟ ياسبحان الله!!

— روحي تسمع دبيب النمل على قاع أملس لا تستغرب إنها قادرة قادر..

تعبأت أوداج الضابط بهواء الغضب ، وانبسط أنفه في وجهه وتفلطح وكاد يموت قهراً وانفجر صائحاً:

- كلكم مهابيل مخابيل عاجزون عن التمييز بين الغث والسمين..

بدت في الحضور إشارات رهبة واستنكار وبدوا كالمشفقين من التهمة وقال الزعيم عرفج بغتة:

- كل شي ممكن يا أفندم وليس أمامك إلا اعتماد شهادتي الأصم والأعمى.

- وهل جاءا بشيء يستسيغه العقل حتى نعتمده؟

وأطبقت عليهم دقائق ثقيلة صامتة إلى أن استعاد كلٌ حيويته عندما نودي بشاهد ثالث قيل أنه الأخير والحاسم ، لكنه بدأ يصدر إيماءات بأنامله وأصوات ذات طابع إيحائي تشي بخرس في لسانه، بيد أن رفيق هذا الأخرس المتكفل به أفهم الضابط أن بوسع صاحبه أن يدلي بشهادته وهو سيلقي عليهم مفادها لأن له باعاً في ترجمة إشارات الخرس إلى كلام ذي معنى.

وبوغتوا بقفزته الانفعالية حين انطلق من وراء مكتبه بخفة النمر الهزيل الأجوف وخلال مشيته أوقد بقداحته الفضية سيجارة ظلت مدسوسة بين أنامله السمراء دون اشتعال بسبب انغماسه فيما مضى من الوقت في مجادلة شهود الحادثة، ودخل شرطي بأوراق مزودة في آخرها بختوم زرقاء فانتزعها الضابط قبل أن يفصح الأول عن ماهيتها وتأملها برهة ولم يلبث أن برقت عيناه في انتصار، وحدج عرفجاً بنظرة ذات مغزى هام وغمغم :

– ورد تقرير المعمل وأفاد أن جسم العيار الذي عثرنا عليه ينسب إلى مسدس طراز (ماكروف)...

– كذاب أبو التقرير و..

أوقفه الضابط عن إتمام لفظ حديثه بتلويحة قاسية من كفه وبأمر شديد اللهجة ينذر بالقبض عليه إن لم يتوقف عن هذره.

– تسب (أبا التقرير) يا أبا الخنازير ، إني لأحسبك متلهفا إلى قيد غليظ ترفل به تجاه المعتقل.

سعى شرطيان وقبضا بناصيته وظلا في تطلع لما سيلقي عليهما الضابط من توجيه ،لكن الأمر وقف عند هذا الحد وقد بدا عرفج على هيبته وجدية مظهره في صمته المهيل كالتائب ، وأدّى هذا إلى انخمادٍ موازٍ في ثورة الضابط وغضبه وإلى إعلان مبهم عن العفو والتغاضي ، لكن الصلابة والتحدي والثقة دلائل، ذات لمعان خاطف في عيني عرفج ، ذلك الرجل القصير الدميم المفتول العضلات المتشح وجهه بأقنعة عديدة غامضة وخطرة ، وقد خاض غمار العصابات في سن مبكر، ثم انسلك في لواء الحرس الجمهوري كمنتسب أساس ، لكنه انفصل عن الجيش بعد عام واحد من تاريخ انضمامه، ربما لأنه عشق العيش طليقاً بعيداً عن الأوامر، ثم اختفى عاماً زعم البعض أنه عمل في الحدود مهرباً لنوع خفيف من الأسلحة النارية، ثم شغل مدرباً في أحد نوادي بناء الأجسام وانتهى عمله بعراك نشب بينه وبين صاحب النادي أودى بالأخير إلى شلل كلي مات إثره. وهو متهم أيضا بطعن رجل واغتصاب فتاتين وجرائم أخرى وقد حكم عليه بالإعدام لكنه هرب من السجن في الفترة بين صدور الحكم وموعد تنفيذه، وقد ارتاب الغالب من الناس في حكاية هروبه، وأكدوا أن ثمة جهات

متورطة فيما حدث، ومنهم من قال إن ساعة القاتل لا زالت خضراء وأن له في عمره بقية. وظهر من جديد بأقنعة ووجوه مجهولة وأسماء مستعارة، وكان آخر عمل امتهنه هو زعيم عصابة قريش وقد ضبطته الأجهزة الأمنية عشرات المرات، بيد أنه كان يفر بقدرة قادر وحبل المشنقة مطوي على عنقه. كيف تمت هذه المهزلة المخزية المضحكة في نفس الوقت؟ كيف صار المستحيل عصفوراً بالكف! لحساب من يعمل؟ أهو مخبر أم عميل أم كائن خرافي شيطاني؟ لا أحد يعلم له أصلا ولا فصلا وليس لديه بطاقة أو وثيقة تدل عليه وأدق وصف يمكن أن يقال فيه إنه المقصود بالمثل القائل: "فرع يابس مقطوع من شجرة". لكنه رجل ويا له من رجل معصوم ممنوع.

***

"يا له من تقرير مريح ولعلي أنال جائزة بقبضي على أخطر مجرم في البلد".

قالها لنفسه وطوى التقرير وراح يتمخطر أمام رجال العصابتين في تفكير شامل، ويشتت نظراته الذكية الماكرة على

الرؤوس المكسرة والعيون الختولة المذنبة ، ويقرأ منها التفاصيل المبهمة المؤلمة وينفث فيها زفرات دائرية كانت الأخيرة في السيجارة ، قبل أن يتحول ويطفئها على عجل في منفضة السجائر المتربعة على سطح المكتب ، وصار لا ينفك عن كل واحد منهم حتى يسأله بأول سؤال يتبادر إلى ذهنه حول القضية ويقنع بأول جواب يخرج فصيحاً أو ملعثماً من فمه. أسئلة مركزة سعى من خلالها إلى هتك أستار بواطنهم المخبولة، ثم ارتد يسأل الشهود لا يبالي بمرور وقت طائل في سأم وثقل قاتلين، ومعاونه يدون كل إجابة دون زيادة أو نقص، على أوراق رسمية مثبتة على ملف مهاب، تتجلى وسط صفرة غلافه كتابة تشير إلى كونه سجلاً خاصاً بالمحاضر الماضية في المخفر.

وتصنَّع الضابط الاهتمام وسأل الشرطي الواقف أمام غرفة جانبية بصوت عارم:

- هل هناك شاهد آخر غير هؤلاء؟

أجاب الشرطي بكلفة :

- هناك شاهد أخير، هل أستدعيه يا سيدي؟

رمش بطرفي عينيه في ريبة وسأل بفتور :

- أهو ذو عاهة أم سليم؟

- سليم يرى ويسمع وينطق ، ولكنه يبدو مجنوناً، ولا أعلم أهو مجنون سياسي أم رسمي.

- أيا كان ، في ستين حريقة ، إنه أسوأ من أسوأ وما أكثر شهود الزور في زماننا!!

قالها ونفخ الهواء في ضجر ، ولكنه أمر بقفل المحضر بكلمات لاذعة مغرقة بالصرامة ، وساهم صوته الأجش في تصوير مدى إخافتها ثم رمى ظهره على مقعده الفارغ وقال:

- بعد الإطلاع على القضية رقم (٣١٠) لسنة ١٩٩٩م المسجلة ضمن حوادث مخفر شرطة "بير عبيد" تحال هذه القضية مع ملف خاص برجال العصابتين إلى النيابة العامة بتاريخ ٥/ ١٠/ ١٩٩٩.

جحظت العيون في رجال العصابتين ، بيد أن صوت عرفج زعيم عصابة قريش جاء خارقاً الصمت الذي أطبق

فضاء المكان المزدحم :

- بأي حق تحيل قضيتنا وملفاتنا إلى النيابة وبوسعك إصلاح ذات البين؟

- اخرس ، ألا ترى هذه الأسنان المنشورة كاللول وهاتين الأذنين المبتورتين وهذا الكوم من الأسلحة والهراوات التي ضبطت في حوزة العصابتين أثناء العراك الدامي؟

قالها وهو يداعب بأنامله أسناناً منشورة على طبق وزوج آذان جوارها ويومئ إلى كوم الأسلحة المرصوصة جانبا ثم يتحرك في هياج..

- أعطني مسدسي (الماكروف).. صاح الزعيم عرفج..

- كيف تجرؤ على هذا التخريف وأنت تعلم كل العلم أن المجزرة التي حدثت بسبب صفقة مهرَّبة؟

ثم أردف الضابط مطوحاً بإصبعه في وعيد :

- أنت متهم بجريمة قتل في الماضي ، ومتهم أيضا بإصابة أحد رجال الجوارح بعيار من مسدسك وإياك أن تظن

أنك ستنجو هذه المرة ، لن تنجو يا عرفج وإنني أؤكد لك ذلك.

- سنرى يا رجل الأمن المخلص.

ورن الهاتف وأفزعهم رنينه المفاجئ ، وأمسك الضابط بالسماعة وأجاب المتكلم بعصبية ، ولكنه لم يلبث أن غيّر لهجته إلى لطف عجيب ، وراح يهز رأسه ويقول بصوت كالمواء:

- لا.. لا أستطيع يا سيدي.. بل أستطيع.. نعم.. أستطيع..

ابتسم الزعيم عرفج ابتسامة عريضة وهو يرى شحوب وجه ضابط المخفر.

صنعاء ٢٠٠٤م

المتسولة الخجولة

وقف بسيارته في "جولة سبأ" منتظراً للإشارة المرورية الخضراء، وراح يتسلى بمشاهدة المارة على جانبي الطريق.. تكوم عدد من الأطفال المتسولين قرب نافذة سيارته الفاخرة، فضغط بضجر زر الإغلاق الأتوماتيكي، فارتفع الزجاج حتى انغلق تماما. ولما خفتت ابتهالات المتسولين وتضاءلت ألفاظهم العديدة التي يلقونها في أذنيه كما جرت بهم العادة، فقال لنفسه : العدد كبير ولا تفي مائتا ريال بالغرض. كره أن يمنح أحد الأطفال دون الآخر ناهيك أن هذا العمل الذي لو أقدم عليه سوف يعرض نفسه لربكة زحام وضجة شديدة الإزعاج قد لا تنتهي دون تحطيم نوافذ السيارة.. غير أنه أضمر لائما ذاته : "لو يعلم هؤلاء الأطفال بأنني مدير مكتب وزير الدولة لحقوق الإنسان لهشموا سيارتي بالطوب الملقى على جانبي الطريق العام".

اكتظم جو السيارة بفعل حرارة الخارج فقام بتشغيل المكيف الذي نفث في جسده هواء بارداً.. في ذلك الوقت فتحت الإشارة الخضراء، فعاد إلى بيته ناسياً الأمر وكأن شيئاً لم يحدث.. في الصباح ذهب إلى عمله ووقف بسيارته في "جولة القادسية" فانثال عليه الأطفال والعجزة يتوسلونه النقود، فرفع إصبعه في الهواء وزجرهم بجملة واحدة وامتعاضة من وجهه المغضب وقال ناظرا إلى الناحية الأخرى: الله كريم يمنحكم من فضله...

ارتد بعض الصغار مبتئسين ناقمين بينما ظل البعض يضايقونه بأذرعهم الممدودة وأفواههم المستجدية للعطاء.. مر كذلك في شارع "مازدا"، فحف به المتسولون من كل جانب فزجرهم بجملته المعتادة ونظر إلى السيارات المحاذية لسيارته، فوجدها خالية نوعاً ما من المتسولين، فقال في سره مندهشاً:

"أطفال الشوارع يطاردونني بصورة مستمرة كما لو كنت سبباً في شقائهم وفقرهم"..

مرةً أخرى يقف منتظراً حتى تأذن لـه إشارة (جولة سبأ) بالعبور فيرى فتاة غير معروفة لديـه تتسلم ورقـة نقديـة مـن رجـل خليجـي الملـبس راكـب في المقعـد الأوسـط للـسيارة المجاورة لسيارته.. لم يستطع أن يميـز مقـدار الورقـة النقديـة، غير أن اللوحة المعدنية للسيارة كانت تحمل رقـم أبـو ظبـي.. عند ذلك عاد إلى منزله مشغول البال مـشوش الفكـر..فطالمـا كان يرى تلك الفتاة اليافعة قابعة بهدوء في الجولة وكأنها تنتظر شخصاً ما، وبالرغم من وضاعة هيئتها ورثاثـة ثيابهـا إلا أنهـا بعينيها الـذليلتين تبـدو كالأرنـب الوديـع وليـست كأولئـك الصغار المشاكسين ولم تمد كفها لـه أو لأي مخلوق كان.. وإنـما تظل تبصر إلى الـسيارات الفارهـة بافتتـان وتـتفحص وجـوه السائقين بعينين تقطران حياءً ومسكنة..أي امرئ يراهـا يظـن أنها قروية ضالة عن أهلها تمرمطـت في الجولـة ،ولا حيلـة لهـا سوى البقاء حتى يعود إليها المعني بهـا... فكـر مـدير حقـوق الإنسان وفكر، وظلـت مخيلتـه مدججـة بـصور شـتى لتلـك المتسولة ، ولكنه لم يخـرج وعقلـه بنتيجـة شـافية مـن التفكـير الحاد.. في اليوم التـالي رآهـا كعادتهـا في ذلـك المكـان وكانـت سيارته قريبة من موضعها..

سألها بتطفل :ما عملك يا فتاة؟؟..

لم تجب عليه وناب عنها أحد أطفال الشارع قائلاً:

– لن تجيب عليك يا أستاذ، هات نقوداً وأنا أخبرك بحكايتها.

قذف له المدير ورقة من فئة العشرين فسارع إلى القول بسخرية:

– متسولة خجولة، لكن هناك من يهب لها أسبوعياً ما نجنيه في شهور عديدة.

وهكذا ظل المدير يلح حتى أقنعته في يوم قائلة :

– لا تتعب روحك يا أستاذ وخليك في حالك واترك الناس في حالها.

مد لها بقطعة نقدية دسمة وقد أخجلته عبارتها لكنها لم تمد إليها يداً وسرعان ما صارت نصيب أطفال الجولة..أحب الأطفال المدير وأحبهم كذلك وأستأنس بحديثهم الذي يبادلونه إياه لفترة وجيزة إلى أن تفتح الإشارة الخضراء. حلمه

الوحيد أن تنضم تلك الفتاة إلى الحديث وتبتعد عن العزلة، لكن حلمه ظل بعيداً عن التحقق.. وذات يوم لم ير الفتاة في موضعها الذي اعتاد أن يراها فيه فسأل عنها أطفال الجولة فقالوا بلسان واحد:

- لا نعلم. إنها لم تغب عن الجولة منذ عامين كاملين..

اغتم المدير واتشح صوته بالشحوب وهو يسألهم قائلاً:

- هل أحدكم يعرف مسكنها؟؟..

نظر جميع الأطفال إلى أحدهم وأمسكوا به وقادوه صوب نافذة السيارة قائلين:

- صابر من حارتها يا مدير..

- لا أدري، لكن ربما أمها مريضة.. أجاب صابر.

وطلب منه المدير أن يركب السيارة ويدله على مسكن الفتاة لكنه لم يقبل متذرعاً بقوله:

- إن جئت معك سوف أتعطل ساعة عن العمل..

عند ذلك دفع له المدير جزافاً كسب الساعة، فامتطى صابر السيارة برضى تام..

دخلت سيارة المدير حارة (المحوى) التي كان يتأفف منها وبالكاد يراها عن بُعد فحسب.. وقفت سيارته أخيرا أمام قبو مربع صغير مبني بقطع طوب مكسرة ومسقوف ببقايا من الزنك..عند ذلك خرج صابر وأخذ ينادي بنت حارته صارخاً :يا رباب أين أنت يا رباب؟؟ أثناء ذلك خرجت من القبو امرأة في منتصف العمر، تبدو من بشرة وجهها الكاسفة اللون أنها أرملة رجل لا وجود له سوى في "خزيمة" أو في مقبرة أخرى، وقالت بصوت واهٍ : ابحث عنها في جولة أخرى فقد انتهت فترة عمل السفير الإماراتي الطيب في المدينة.

صنعاء ٢٠٠٢م

مدينة الجبل

توكأ الشتاء على آخر أيامه، وطاردته الشمس بأشعتها الحارة، وبدت تدلق سحرها على الشعاب والجبال المحتضنة لها من ثلاث جهات.. أما جهة الشمال فهي مفتوحة على هوة سحيقة من القرى المتناثرة هنا وهناك في بيداء شاسعة خفيفة الانحدار.. الصيف ضيف - عزيز وضع قدمه على الرمل والحصى والعشب وعلى كل شيء.. وجاء معه بالبشير المشتهى.. إنه المطر..أما الضباب فقد قطّعته الجبال قطعاً فتناثر فوق أعناقها كقطع من الصوف.. نشر الظلال صمته على المساكن والزروع والخرائب، وقطعت الشمس إجازة لمدة يوم واحد..ورقدت منهكة خلف الغيوم..

عند المغيب نظر محمد من النافذة إلى الخارج، ولم يلبث أن زفر زفرة دخانية اختلطت بتوسله:يا الله اجعل لي طريقاً حتى

أصل إلى الوادي كي أحرس "قطفة القات"..بعد هنيهة خف إعصار المطر، فحمل بندقيته وفك سنارة المظلة وتأهب للذهاب إلى الوادي.. وقبل أن يذهب التفت إلى زوجته وخاطبها قائلاً بألفاظ سريعة:

- ارسلي أحمد إليَّ بالشاي ووجبة العشاء..

في الساعة التاسعة سمع أقداماً تقترب منه فأضاء المصباح.وما إن رأى القادم وعرفه حتى قال بضجر:

- أنا أمرتك يا سعدية أن ترسلي أحمد و....

قاطعته وهي تضع الإبريق والكأس أمامه قائلة:

- لا عليك يا محمد، فالولد منشغل بمراجعة دروسه..

- لماذا جئت في هذه الساعة المتأخرة؟ أود أن اعرف لماذا؟؟

- جئت أسامرك وأقضي الليلة قربك..

- ألسنا البارحة معتنقين إلى الصباح؟؟ ألا تملين المضاجعة؟؟

- لا أمل في حضنك يا أبا أولادي.

ثم قهقهت قهقهة قوية، فانفرجت نواجذها ولاح بريق أنيابها في الظلام، وبدت ملامحها شديدة الإخافة، ولكن محمداً لم يلحظ ذلك في البداية..بل شعر بها تدنو منه وهي تسأل بصوت أجش :

- أما آن أن ننام؟

- انتظري حتى ألقي نظرة على المزرعة.

خرج يلقي نظرة، ثم عاد سريعاً، فوجدها مستلقية على الفراش. انتابته قشعريرة شديدة وهي تضمه إلى جسدها وتلثمه بحرارة.. شرد به خياله وهمس في سره: "كيف أتت سعدية إلى هنا بمفردها، إنها تخاف من ظلها، هذه ليست رائحتها".

وتتحرك قدمه لتحتك بقدمها اليسرى، وتصرخ أعماقه : "إنها (صَيَاد)(*)، لها حافر حمار. يا للهول"!.

(*) صَيَاد : أنثى الجن.

ضغط بكفه على ثديها ونزعه من تحت الإزار وقرَّب حلمة ثديها ومصَّه مصاً إلى أن تبللت شفتاه بالحليب.. صرخت بوحشية قائلة:

- أيها الماكر ، كيف فعلت ذلك! هل بلعت الحليب؟

سرت رعدة شديدة في هيكله وهو يجيب:

- نعم لقد بلعته.. إن مذاقه مرٌّ للغاية.

- لقد أضحيت ولدي.. وما كنت أريد ذلك..

وجعلت تدور في تلك الغرفة كالمجنونة، وأضافت أخيراً:

- سوف أبعث إليك شرمان ولدي.. وداعاً.

شعر في الفجر ببرودة شديدة، وتثلجت أطرافه وكأن أصابع باردة تجس جسده وتهزه هزاً... أفاق هاتفاً بوجل:

- يا إلهي! ما هذا الكابوس؟

أتاه صوت صغير من إحدى الزوايا:

- هذا أنا..أنا أخوك شرمان..

أجاب مضطرباً:

- أين أنت؟وماذا تريد مني؟

- لقد بعثتني أمي لأكون معك.

- أقسم أنك لن تؤذيني..

- وحق الحليب الذي مضغته أني لن أمسك بسوء فأنت أخي.

ثم انقلب صاحب الصوت أمامه إلى شاب طويل في مقتبل العمر، أصفر اللون، شفاف الصورة يرتدي زياً ملوناً عجيباً، وكان يزوره من حين إلى آخر..ويوم الجمعة جاءه بغرض اصطحابه إلى مدينة الجبل مسقط رأس شرمان ليرى أمه..ولأجل هذا حمله على ظهره وشق به عباب الجو إلى أن هبط به قرب جبل صمصام.. قرع شرمان الجبل ثلاث قرعات خفيفات وهمهم بلغة لم يفهمها أخوه محمد.. ثم طلاه بالدهن السحري.. فانشق الجبل ولاحت بوابة رسمية مفتوحة من

الداخل. فدلفا معاً عبرها حتى استوقف شرمان محمداً عند ردهة البوابة.. والتفت إليه محذراً بقوله:

- إياك أن تتحرك من مكانك إلى أن أعود إليك..

- لا تتأخر عليَّ فأنا خائف.

وبعد أن ذهب شرمان قال محمد لنفسه: سوف أخطو خطوة واحدة، فلا ضير في ذلك..

خطا خطوة. فتراءى له مجلس فسيح يعج بشيوخ مسنين، لحاهم طويلة بيضاء جاوزت الصدور.. وهم عاكفون على قراءة كتب بين أيديهم.. سمع شيخا يتوسطهم يقول:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.. ((الحديث)).

وآخر يقول: يجب أن نضغط على الملك مكران حتى يعيد الضرائب إلى ما كانت عليه..

وثالث: يجب أن نكون محل ثقة شعبنا وإلا فلن يمنحونا أصواتهم..

ورابع: لماذا الخوف؟ أين الأغلبية المطلقة؟

همس أحدهم مطلقا ضحكة مرعبة:

-المخبرون في زوايا المجلس أسوف ينكل بنا الملك.

صرخ الشيخ غامزاً بعينه في مكر:

-الضريبة من صالح الشعب لتطوير البنية التحتية ودعم السلع.

فغر المردة أفواههم وعارضت ضمائرهم لكنهم ظلوا صامتين.. تخيل محمد أنه أمام شاشة التلفاز وقال لنفسه متعزياً: "لسنا الوحيدين الذين نعاني من وطأة الوضع، مساكين الجن".

نفض أحدهم غبار الصمت ليقول بشجاعة مفتعلة: إلى متى ونحن صامتون على مصاصي الدماء؟ ألم تعلموا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد... آه ماذا ماذا، المعذرة، لقد نسيت". قفز محمد من قرب باب المجلس وصاح بانفعال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفضل الجهاد كلمة حق في وجه سلطان جائر).

انقلب المجلس رأساً على عقب، والألفاظ المستنكرة تتطاير: إنسان.. إنسان.. إنسان...

وتكلم الشيخ بصوت غاضب :

- أما يكفينا ما نحن فيه من المتاعب حتى يهجم الإنسان على مجلسنا الموقر! أين حراس المجلس؟

هرع الحراس من كل جانب وأحاطوا بمحمد، فبدا شكله غريباً بينهم كالتحفة الأثرية الجامدة، وألقى به المردة و شرمان في سرداب الجبل، متريثين صدور حكم الملك بشأنها.

قال شرمان باكتئاب:

- ألم أنصحك بعدم الحركة أو التفوه بأية عبارة حتى أعود إليك بتصريح زيارة؟

- إنه الشيطان الذي أغواني. أجاب محمد بندم..

- شياطين الإنس أدهى من شياطين الجن.

ثم أردف شرمان بأسى:

- إنها النهاية ولن نلتقي مرة ثانية.

- لا تقل هذا يا أخي، محاكمكم عادلة.

- نحن نشبهكم تماماً، الكبير يأكل الصغير، وسيلصقون بي الخيانة لأنال العقاب.

- بأي جرم يفعلون بك ذلك؟

صرخ شرمان بقهر:

- جرمي أنني جئت بك، وجرمك أنك نطقت بالحق، لذا سأحمل وزرك.

تباكى محمد هلعاً وتذكر أبناءه وزوجته، وجاءت عبارات شرمان لتخفف عنه :

- اطمئن، لن ينالك شيء تكرهه، أما أنا فواحد من الرعايا.

وحل صمت طويل لم يقطعه إلا أصوات الحرَّاس..

صنعاء ٢٠٠٢م

المحتـــــويات

الشعرة البرونزية ٥
وعاء التبغ المفقود ١٥
برج العقرب ٢١
ألحان الصخور ٣٨
رؤيا بين أشلاء الجنود ٤٣
روح الحبيبة ٥٣
نبوءة العرَّاف ٧١
العناكب والغبار ٧٧
الحُب المستور ٨٧
حكاية الزعيم عرفج ٩٢
المتسولة الخجولة ١٠٣
مدينة الجبل ١٠٩